رواية الجنوب وسؤال الهوية: نقض التنظير السوسيولوجي ومراجعة حدود سردية الخطاب (رواية الصحراء نموذجا)

أ. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم
أستاذ النقد وتحليل الخطاب-مدير مدرسة الدكتوراه
كلية الآداب والعوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

0.0.ـ يسعى هذا البحث في مقاصده النظرية وأدواته المنهجية إلى الوقوف عند قضية من قضايا الفكر الأدبي العربي، لم تأخذ بعد حظها من الاهتمام، بما فيه الكفاية في دوائر الدرس الأكاديمي ومشاغل البحث العلمي العربيين، تتعلق بتعميق الوعي النقدي بعلاقة الأنواع الأدبية وأشكالها بالهوية وقضاياها. فمن الملاحظ أن الدراسات والبحوث ذات التداول العلمي النشط، في البيئات العلمية العربية وحواضنها الثقافية، لم تعمق بعد كثيرا مشغل هوية الأشكال السردية العربية عامة والرواية منها خاصة، باعتبارها أشكلا سردية تراثية متأصلة في الكتابة الإبداعية العربية كالمقامة والحديث والرسالة (أشكال عربية) أو وافدة غير أصيلة في الإبداع العربي كالرواية والقصة القصيرة (أشكال مستعربة).

1.0. – وتطرح مسألة هوية الأشكال السردية على منظري النظرية الأدبية العرب قضايا وأسئلة نقدية: منها ما يتعلق بالتنظير للأشكال السردية عامة والرواية منها خاصة، ومنها ما يتصل بتأصيل أشكال الكتابة السردية في السردية العربية، وتجذير سرديتها بتشريها لخطابات المجتمع، وعبقرية اللغة وهوية الإبداع. لذلك يسعى هذا البحث إلى طرح مسألة هوية الرواية العربية من خلال إثارتين علميتين:

1.1.0. – تتعلق الأولى بمراجعة سؤال التنظير، في ضوء ما عرفته النظرية الأدبية من تحولات نقدية وإبدالات منهجية، دفعت إلى إعادة التفكير في الإجابة على سؤال التنظير للرواية ومساءلة أطروحته. وقدمت للمشتغلين بتاريخ ظهور الأنواع الأدبية وأشكال تحققها، وللسرد الأدبي وأشكاله خاصة، مداخل نظرية ومنهجية تفسر ظهور الأشكال السردية ومنها الرواية، وفقا لنظريات وانطلاقا من أطروحات مغايرة للتفسير الذي تقترحه المداخل التاريخية والسوسيولوجية السائدة. وهي النظريات والأطاريح التي أدت إلى مراجعة نظرية الرواية ونقض تنظيرها، ومساءلة أطروحة منظريها للتنظير النقدي في ضوء ما قطعته النظرية النقدية في اتجاه التمسك بالنص والقطيعة مع السياق، والإرتكان في كتابة تاريخ الأنواع الأدبية إلى تغير أدبيتها، وتبدل شعريات قولها، وأزمنة

تحول خطاباته، باعتبارها التاريخ الأدبي للأنواع والأشكال الأدبية، المرتبط بالأنساق اللسانية والثقافية للمجتمعات التي تظهر فيها، والمحقق لهويات النصوص الإبداعية والأنواع الأدبية وأشكالها.

2.1.0. – وتتعلق الاثارة الثانية بالتوقف عند ملامح من سردية رواية الجنوب، جذر بها روائيو الصحراء الرواية العربية في نثرية من الكتابة، أصلت لكيانها، وربطت منابع إبداعها بمنابت من القول، أفصحت عن هوية شكلها السردي، ونوعت من منجزها الإبداعي، وقادت السرديات الوصفية واصفي سرديتها والمشتغلين بخطابها السردي، إلى مكونين سرديين محققين لسردية رواية الصحراء(المتخيل السردي، مستويات اللغة)، كشفا عن مساحات من السردية، لم تضئها أدوات السرديات الحصرية، المتوقفة عند طرائق اشتغال مكونات الزمن والصيغة والتبئير في تحديدها لحدود السردية. ووسعت من مدارك السرديات التوسيعية، بفتحها لخيار توسيع السرديات، ليس على قاعدة توسيع الحدود، بالعودة إلى مكونات القصة للجمع بين التعبيري والدلالي في البحث عن سردية للنص، كما دعا إلى ذلك ميشل ماتيو كولاس في بحثه المعنون بـ " حدود السرديات"[1]– وإنما على قاعدة توسع السرديات ضمن خيار التمدد (سرديات التمدد)، ببحثها عن مكونات أخرى للخطاب في القصة، وعن سردية خطاب ليس مصدرها طرائق اشتغال الزمن والصيغة والتبئير، تتمسك بالتعبير مصدرا لها، في كشفها عن سردية رواية الصحراء.

أولا: النظرية الأدبية والتنظير للرواية: سؤال المراجعة

1.1. – لقد انشغل منظرو الرواية العربية منذ عقود بقضايا النشأة وأسئلة التحول، ولم يعمقوا البحث كثيرا في قضايا هوية الرواية، وهم يبحثون في النشأة، ويؤصلون لكيان الإبداع العربي. فانشغلوا بتفسيرات نظرية سوسيولوجيا الأدب لظهور الرواية، كما عرض لها منظرو الرواية في المجتمعات الغربية، وخاصة منها أطروحة لوسيان كولدمان في تفسيره لظهور رواية في المجتمعات البرجوازية الحديثة، وفي ارتباط ظهورها بالمدينة واحتضانها لتحولات طبقية برجوازية، وبروز وعي طبقي عند أصحابها، وامتلاكهم لرؤية للعالم. فجاءت جهود المنظرين الأول للرواية العربية منشغلة في عمومها بقضايا النشأة وسياق التحول، دون أن يعمقوا النظر كثيرا في أصول نشأة الرواية في علاقتها بكيان الأمة وهويتها، بحثا عن كينونة إبداعية مغايرة، للتي يقترحها منظرو سوسيولوجيا الأدب، تؤصل للأشكال السردية عامة، والرواية منها خاصة، في هوية إبداع مرتبطة بفضاءات ليست محققة لشروط المدينة، وبتكوينات اجتماعية مغايرة لمجتمعات الشمال، وبرؤى وتصورات للعالم مخالفة للتي أنتجتها تحولات الوعي في المجتمعات الغربية.

---

[1] Michel Mathieu – Colas : Frontières de la narratologie in, poétique, No 65 Février 1986

التنظير للرواية ورواية الجنوب: شروط إنتاج الخطاب.

1.1.- فكان ظهور" رواية الصحراء " في مجتمعات الجنوب، والمجتمع العربي من بينها، العلامة المنبهة على سؤال مراجعة التنظير النقدي السائد، والانشغال بتنظير يؤصل الإبداع في هويته، ويطرح سؤال المواءمة والملاءمة على منظري رواية الجنوب، والمكتوبة منها خاصة في الصحراء. والسؤال الذي يطرح هنا هل يمكن القول إن شروط إنتاج الخطاب الروائي واحدة، حتى نقول مع منظري سوسيولوجيا الأدب بنظرية للرواية واحدة موحدة؟. وهل يمكن أن نصنف رواية الجنوب، ورواية الصحراء منها خاصة في خانة رواية المدينة؟ التي نظّر لها منظرو سوسيولوجيا الأدب، واعتبروا التنظير لها نظرية للرواية، شمالية كانت الرواية أم جنوبية؛ قبل أن تصبح أطروحة تطبق ويقاس عليها مع لوسيان كولدمان. وهل يحقق التنظير لشكل الرواية المكتوب شمالا هوية شكل الرواية المكتوبة جنوبا؟

النظرية النقدية والبيئة العلمية العربية: قضايا النظرية وأسئلة الأطروحة.

2.1. ـ لقد أدي تراكم الوعي النقدي بالنظرية الأدبية، في الربع الأخير من القرن العشرين الحاصل في البيئات العلمية العربية إلى تعدد في المداخل النظرية والمنهجية المؤرخة للأدب والمفسرة لظهور الأنواع الأدبية وأشكالها، كما ساهم النشاط البحثي والعلمي المتزايد في وحدات البحث ومخابره في تنشيط دورة إنتاج المعرفة في الجامعات ومعاهد البحوث العربية؛ وإن بشيء من التفاوت، وهو ما ساهم في تعميق الوعي بالنظرية النقدية وتجذير تطبيقات مناهجها في التجربة العربية، كان من نتائجه العلمية، تنشيط الحياة العلمية بالكليات ومراكز البحث العلمي بالجامعة، وهو ما خلق مع الوقت في بعض البيئات العلمية العربية دوائر من الحوار المعرفي والعلمي داخل وحدات التكوين العليا(الماستر، الدكتوراه)، وحدات البحث ومخابره المتخصصة؛ جعلت قضايا النظرية الأدبية وأسئلة المنهج وأدواته تصبح موضوعا للنقاش والمساءلة، الشيء الذي ساهم في تراجع التصورات المدرسية والنظريات النقدية التقليدية، التي كانت سائدة في المقررات الجامعية، وخفف من سطوة خطابها في المتداول المعرفي والعلمي القائم. وقد أدي كل ذلك إلى نقض نظريات كانت محل نقاش، واختفاء تصورات وآراء كانت قائمة، واستمرار أطروحات ومناهج كانت محل تطبيق واختبار، وظهور أخريات قابلية للتطبيق ومنتجة للمعرفة؛ مما هو متداول اليوم في البحوث المنشورة في الدوريات العلمية والأطاريح المناقشة في مدارس الدكتوراه، وفي الكتاب الجامعي، وأعمال الملتقيات والمؤتمرات العلمية المتخصصة؛ وغيرها مما يدخل اليوم في دوائر التداول العلمي في البيئات العلمية العربية -الأجنبية، ويتقاسمه الباحثون بدرجات من الاطلاع وبمستويات من التفاعل متفاوتة.

الشعرية التاريخية والسرديات التاريخية: نقض التنظير السوسيولوجي.

1.2.1 ـــ والنظرية التي نبسطها هنا، والأطروحة التي نسعى لاختبارها، تدخل في دائرة من الدوائر ما زال حظها من البحث والنقاش والمساءلة العلمية محدودا، نتيجة لهيمنة المدخل اللاتمسوني في التأريخ للأدب، وسطوة نظرية تفسير سوسيولوجيا الأدب لظهور الأنواع الأدبية في أغلب دوائر إنتاج المعرفة في البيئات العلمية العربية؛ على الرغم من أن مدخل "الشعرية التاريخية"، الذي نتبنى طرحه هنا، ونختبر أدواته، مدخل نقدي نادي به رواد الشعرية من السرديين الأول نهاية ستينيات القرن الماضي. فقد تعرض تودوروف لتاريخ الأدب في دراسته المعنونة ب " **الشعرية والتاريخ الأدبي**" المنشورة في المؤلف الجماعي " **البنيوية في الشعرية**" عام 1968، كما شارك زميله ازوالد ديكرو تأليف كتاب المعجم الموسوعي لعلوم اللغة (1972)، الذي ضمنه تصوره للتغيرية الأدبية موضوع تاريخ الأدب، فهي المتغير من داخل الخطاب الأدبي الذي ينبغي التركيز عليه والاشتغال به، فعلى دارس تاريخ الأدب أن يدرس تغيرات الخطاب الأدبي في الأعمال الأدبية باعتبارها المدخل لتأريخ للأدب. كما تعرض جرار جنت في كتابه **وجوه ـ ثلاث**[1] للشعرية التاريخية في ثاني المداخل التي مهد بها ل"**خطاب الحكاية : بحث في المنهج**"، واعتبرها المدخل النقدي للتأريخ للأدب، وعنون هذا المدخل ب " **الشعرية والتاريخ**" وبسط فيه نظريته، معتبرا أن تاريخ الأدب هو تاريخ للأدب ذاته، مستطردا قولة جاك روجه " تاريخ الأفكار ليس موضوعه الأول الأدب"[2]، فهو عنده " تاريخ للأدب في ذاته (وليس في سياقاته الخارجية)، ولذاته (وليس كوثيقة تاريخية)"[3] و" لن يكون هو الأعمال الأدبية نفسها، ذلك أن العمل الأدبي موضوع جد متفرد ودقيق لكي يكون موضوعا للتاريخ"[4]، ومن ثم فهو عنده تاريخ للأشكال حين يتم التركيز على" القوانين البلاغية، والتقنيات السردية، والبنيات الشعرية ...الخ، لأنه يوجد تاريخ للأشكال الأدبية كما لكل الأشكال الجمالية".[5] لذلك فتحت الشعرية بابا من التاريخ، للزمن فيه لا يقوم على الوقائع والأحداث، بل على التغيرات والتحولات الحاصلة لمكونات الخطاب من انحرافات شعرية وتقنيات سردية وبنيات شعرية، تؤدي إلى تغير في أدبية الأشكال وتحول في جمالياتها، وأحيانا إلى اختفاء بعضها، وظهور أشكال

---

[1] Figures 3 , collection poétique, éd. Seuil. Paris, -Jacque Roger, Les Chemins actuels de La critique, Plon, 1967, p.355.ص نفس , Gérard Genette.

[2] Figures 3 , p . 16

[3] Gérard Genette ; Figures 3 . op,cit..p.17

[4] Gérard Genette ; Figures 3 . op,cit..p.17

[5] Gérard Genette ; (.1972) Figures 3 . collection poétique éd. Seuil. paris. p.18.

أدبية بديلة عنها؛ وهذا ما جعل جنت يبن انحيازه إلى هذا النوع من تاريخ الأدب الناقض للتاريخ الأدبي المستند إلى السياق أو إلى التلقي، مشددا على انه لقيام تاريخ الأدب، تظل الحاجة ماسة لقيام نظرية تفسر الجهد الوصفي للتغيرات الأدبية والتحولات الشعرية، التي تطرأ على الأشكال الأدبية، يقول: " ولتبيان هذه الحاجة، أذكر مثلا أحد المؤلفات النظرية النادرة، التي ظهرت لحد الآن في فرنسا، كتاب جان كوهن حول بنية اللغة الشعرية."[1] مبرزا استناد جان كهن إلى نظرية في تفسيره للتحولات الأدبية والتعبيرات الشعرية التي عرفها الشعر الفرنسي من القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين، وانكاءه على جهد تنظيري تحتاجه كتابة التاريخ الأدبي.

1.2.1 -1ـــ في الأفق النظري والمنهجي لهذا الطرح يأتي هذا البحث ليقدم تصورا نقديا لظهور الأشكال السردية، يستند في مرتكزاته النظرية ومحدداته المنهجية إلى السرديات التاريخية في نقضها لنظرية سوسيولوجيا الأدب، وتفسيرها لظهور الأنواع والأشكال الأدبية، متخذا من أطروحة لوسيان كولدمان في ظهور الرواية عينة للمساءلة والنقض، وهو إلى ذلك أطروحة[2] تسعى لتوسع المدارك النظرية والمنهجية للشعرية التاريخية في تصوراتها النظرية والمنهجية لظهور الأنواع والأشكال الأدبية، وتختبر أدواتها وتطبيقاتها في تفسير ظهور الأشكال السردية، متخذة من رواية الصحراء في التجربة العربية عينة للكشف عن سردية رواية الجنوب، باعتبارها سردية كاشفة لجمالية من الكتابة، وشعرية من الإبداع، خاصة بأهل الجنوب، محققة لهوية إبداعهم ولشروط إنتاج خطاب كتابتهم.

الفكر الأدبي العربي ودورة إنتاج المعرفة: الأجيال الممتدة.

3.1.ـــ يأخذ الخطاب النقدي قدرته على خلق الوعي وقوته في إنتاج المعرفة في الجامعة، بحسب أعداد المُدرسين له الحاملين لفكره، وكثافة الطلاب الباحثين المتبنين لطرحه والمشتغلين بأدواته عقدا ونيفا من الزمن يتم فيه تقديم المعرفة في الليسانس، ونقد المعرفة في الماستر، وإنتاج المعرفة في الدكتوراه، ويَحْصُل خلاله تبادل المواقع بين منتجي المعرفة والمؤهلين لخلافتهم؛ لاستكمال دورة

---

[1] -Gérard Genette ; Figures 3 . op.cit..p.19

[2] ـ تستند هذه الأطروحة إلى جانب منهجي، يتبنى السرديات التوسيمية مشغلا وأدوات منهجية للتأريخ للأشكال السردية، وقد دخلت هذه الأطروحة دائرة التداول العلمي العام منذ فترة، فكانت مرتكزا نظريا ومنهجيا، للعديد من البحوث والدراسات المنشورة في دوريات عربية متخصصة، كان بعضها مشاركة في مؤتمرات وملتقيات علمية عربية، أقدمها بحث" الأشكال التراثية والنثرية التراثية: مساهمة في الوعي بالعلاقة (النص الموريتاني نموذجا)، الذي شاركت به في مؤتمر الرواية العربية الأول: خصوصية الرواية العربية، القاهرة، فبراير 1998، وبحث" الرواية العربية والنثرية العربية، قدم في ندوة نجيب محفوظ والرواية العربية المنعقدة بالقاهرة على هامش مؤتمر الاتحاد العام لأدباء والكتاب العرب لعام 2006 ونشر في مجلة الاتحاد.

اكتساب المعرفة وتحصيل العلم وإنتاجهما بالجامعة. ويلاحظ المتتبع لحركة الفكر والعلم في الحالة العربية أن هذه الدورة لا تستكمل دائما جل حلقاتها، في الغالب إلا بعد مرور العقدين أو الثلاثة، ليحصل تبادل المواقع المعرفية والعلمية بين الجيلين؛ الذي تتطلبه الحياة العلمية النشطة بالجامعة. فالتقاء الجيل أو الجيلين أو الثلاثة في الفكر الأدبي والطرح النقدي والاختبار المنهجي، يجعل تحديد الجيل بالعامل الزمني، في البيئات العلمية العربية غير دقيق، في توصيف تآخذ حلقات تطور المعرفة والعلم في الجامعات العربية. فالفكر الأدبي والمناهج النقدية مثلا، في بعض الجامعات العربية، يشيخان مع الشيوخ ولا يتجددان مع المدرسين والباحثين الجدد إلا بعد مرور عقود من الزمن، نظرا لهيمنة النظرية المُدَرسة في المقررات، وسيادة الطرح المُخْتَبر، وسلطة المنهج المطبق وعدم حذق الأدوات المطبق بها.

1.3.1.- فأفكار النظرية النقدية في بعض هذه البيئات، تأخذ فترة طويلة قبل أن تُنْقَض أو تُقْبَل للتعايش مع أفكار أو نظريات أخرى؛ والرأي المُخْتَبَر(الأطروحة) يُحتفظ به مدة غير قصيرة، قبل أن يُبْنى عليه أو يُتَجاوز، والمنهج النقدي بعِدَّته المنهجية يُتَمَسَّك به فترة طويلة، فيصبح عند البعض أقرب إلى المذهب منه إلى المنهج؛ فلا تكون أطروحته وأدواته المنهجية محل اختبار وتطبيق، ليتفطن إلى أنه حلقة من حلقات تطور المناهج النقدية، وأداة من الأدوات المنهجية الواصفة للأدب والمحللة له؛ ولا يبدل فيُؤخذ بمنهج نقدي وعدة منهجيات أخرى تغني الدرس الأدبي، وتنوع من تطبيقات المناهج في البحوث والأطاريح. ومن هنا اتسمت حركة أفكار النظرية في هذه البيئات بالبطء وضعف النشاط، وغلب على تجذر المناهج بها، الجمود وعدم التبدل. ولذلك وصفت الأجيال في بعض البيئات العلمية العربية، بأنها أجيال ممتدة، امتداد حيوية النظرية والتمسك بها في الجامعة المُدَرسة بها، وطولَ مدة تطبيق المنهج و فترة الاحتفاظ به والتعاطي معه؛ لأن فعل التغير المعرفي والتطور العلمي في هذه البيئات، لا يأتي في الغالب من نقض للأفكار واختبار للمناهج وأدواتها من طرف باحثين ومدرسين جدد، كل عشر سنوات الفترة المحددة، عند أصحاب سوسيولوجيا المعرفة لظهور جيل جديد، والمخصصة عند الإبستمولوجيين للدورة المعرفية والعلمية بالجامعات ومراكز البحث؛ لإعادة إنتاج المعرفة على يد مدرسين باحثين شباب من أصحاب الاختصاص على نحو ما يحصل في البيئات العلمية النشطة، والحواضن المعرفية الحية.

سوسيولوجيا الأدب والتنظير للرواية: سردية رواية المدينة

4.1 – ومن العينات الدالة على بطء حركة أفكار النظرية النقدية في بعض البيئات العلمية العربية وضعف نشاطها، وتصلب المناهج النقدية فيها، وعدم حيوية تطبيقاتها المنهجية، على نحو ما

أشـــرنا له أعلاه، ما تثيره النظرية النقدية المعاصـــرة في هذه البيئات العلمية العربية من قضـــايا، ويطرحه المنهج من أسئلة؛ وهو ما سنسعى إلى إجلاء بعض ملامحه بالتوقف هنا عند مظهر من مظاهر الفكر الأدبي العربي، يتعلق بقضـــية من قضـــايا الفكر الأدبي العربي؛ المتصـــلة بالتأريخ للأنواع الأدبية(الشعر، السرد، المسرح) وأشكال تحققها عامة، وبنوع السرد وأشكال تحققه بصفة خاصـــة، منطلقين في هذا الطرح من الشـــعرية التاريخية مدخلا للتأريخ للأنواع والأشـــكال؛ ومن الســـرديات التاريخية مرتكزا نظريا لتقديم الأطروحة البديلة التي نقترح، ومحددا منهجيا لاختبارها؛ متخذين من ظهور الرواية العربية نموذجا لبسط هذا الطرح.

1.4.1 – من" أبرز التصورات النظرية النقدية – التي ظلت قائمة في أذهان النقاد العرب المدرسيين وبعض الأساتذة الباحثين، وتمسك بها الفكر النقدي العربي فترة غير قصيرة من الزمن، ولم تتعرض بعد في بيئات علمية عديدة للاهتزاز والنقض، المؤديين عادة إلى اختفاء التصـــورات والمســـلمات النقدية، وإدخالهما في دائرة تاريخ الأفكار – الربط بين الشعر والصحراء (الفضاءات المفتوحة)، وبين الرواية والمدينة (الفضـــاءات المغلقة)،"[1] وهو الربط الذي ولد مع الزمن نوعا من التواطؤ النقدي الضـــمني لدى الكثير من النقاد العرب المدرســـين مؤداه "أن درجة الكثافة الفنية لســـرد الصـــحراء بمتخيلها ورؤاها وصـــيغها السردية، ليست مُهَيِّئة لإنتاج النص الروائي، لانتماء هذا السرد ومتخيله السردي إلى تكوينات اجتماعية صحراوية مباينة للتكوين الاجتماعي بالمدينة، الذي أدى إلى ظهور الرواية في المجتمعات الغربية، نتيجة لتحول اجتماعي وثقافي مغاير لمجتمعات الجنوب وثقافته"[2].

ومن هنا ظل التصـــور الرابط بين ظهور الرواية وصـــعود البرجوازية الصـــغرى في المجتمع الغربي، الذي انتهى إليه التنظير الماركسي في رصده لظهور هذا الشكل السردي ـــ في نظرنا ـــ " المسلمة النقدية المضـــللة لذهنية النقد العربي، والمكرســـة لطرح لا يســـتجيب لشـــروط الإبداع في مجتمعات الجنوب ولا لخصـــوصـــيات القول الأدبي فيها"[3]، بفعل تبنيها المطلق لهذا الطرح، وعدم تحرر هذه الذهنية من ســـلطان التنظير الغربي لتاريخ ظهور الأشـــكال الســـردية من جهة؛ وعدم قدرة التفكير

---

[1] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص، تقديم أ. د. سعيد يقطين، الكتاب الفائز بجائزة شنقيط للآداب والفنون 2004، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط 2012، ص/15

[2] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: المرجع السابق ص/ 15

[3] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: المرجع السابق ص/16

المنهجي لأصحاب هذه الذهنية التحصين من سلطة الإسقاط المعرفي والمنهجي، الذي اتسم به النقد الأكاديمي التقليدي، ولم تسلم منه بعض هذه البيئات من جهة أخرى.

2.4.1 ـــ ونتيجة لذلك لم يقع التفكير في مراجعة هذه المسلمة ومساءلة تفكيرها النقدي – في ظل تطورات الوعي النقدي بالنظرية الأدبية في فكر الأدبي العربي، وما أتاحته من أفق للتنظير للأنواع والأشكال الأدبية، وما وفرته من مناهج وأدوات لمراجعة النظريات السائدة والأطروحات القائمة – إلا في دوائر محدودة من الوعي النقدي، بل اتجه الدرس النقدي الأكاديمي في بعض مقررات الجامعات إلى تدعيم هذه المسلمة، وتقوية حضورها في أذهان الطلاب الباحثين، رغم ما أشاعه النقد الجديد من وعي نقدي مضاد لهذا الطرح ولتفكيره المنهجي. فكان من أبرز القضايا التي اعترضت الفكر النقدي العربي في العشرين سنة الماضية، التي يمكن أن نعرض لها هنا؛ صعوبة تصنيف بعض النصوص الروائية العربية، المكتوبة في فضاء الصحراء العربية، الممتد من موريتانيا وجنوب المغرب والجزائر وليبيا وتونس وعبر صعيد مصر وسهول بلاد الخصيب وصحراء اليمن وبلاد الخليج، وخاصة بعد تضاعف أعداد قوائم هذه النصوص، وتنوع سرديتها.

3.4.1 – فلم يستطع المشتغلون بالتنظير للأشكال في البيئة العلمية العربية؛ أن يدخلوا هذه القوائم في خانات للكتابة الروائية العربية القائمة، لما اتسمت به نصوص هذا الشكل الروائي الجديد من ملامح فنية مغايرة لتشكل الخطاب الروائي السائد. الأمر الذي جعل تصنيف هذه القوائم من النصوص الروائية في خانة الرواية المتعالقة نصوصها مع البنيات الاجتماعية لمجتمع المدينة، بقوائمها المتعددة (الرواية الاجتماعية، رواية تيار الوعي،..) أمرا غير ممكن، نظرا لما وسم سردية الخطاب الروائي في هذه النصوص من ملامح خاصة، تتجلى في طرائق من تكثيف للمتخيل، ودرجات من التشكل للخطاب، وأساليب من التعبير عن منطوقات أهل الجنوب بثرياتها المتعددة والمتنوعة، ومستويات من الرؤية السردية لموصوفات عالم الصحراء؛ تعطي هذا النص الروائي سردية ممتعة ومؤنسة مختلفة عن سردية رواية المدينة، ومفارقة للسردية رواية المدينة في مصادر مأتي حسنها وجماليات إبداعها. وهو ما نوع من مصادر الإبداع الروائي العربي، ومد الروائيين العرب بأدوات من الكتابة جديدة مكنت الرواية العربية من لكتشاف عالم الصحراء، وأصالتها في تقاليد قول أهل الجنوب، وهوياتهم الثقافية.

5.1 ـــ وبذلك لم تُنقض نظرية الرواية عند السوسيولوجيين وخاصة أطروحة لوسيان كولدمان منهم القائلة بأن الرواية شكل سردي يظهر في مجتمعات المدينة، يرتبط ظهوره بصعود البرجوازية الصغرى (الطبقة الوسطى) وتنامي الوعي الطبقي فيها. فالرواية تقدم رؤية للعالم من طرف كتاب

ومثقفين، يناهضون البرجوازية الكبرى ويسعون لتعزيز مكانة أصحاب الكسب بالأذهان في المجتمع والدولة (الأساتذة، القضاة، الإداريون، المهندسون، الإعلاميون ....)، في وجه قوة نفوذ أصحاب الكسب بالمال (أصحاب رأس المال، وكبار المستثمرين، كبار التجار...) وتراجع دور أصحاب الكسب بالسواعد (العمال اليدويين، الحرفيون، أصحاب الكسب اليدوي..).

1.5.1 -وتستند نظرية الرواية عند كولدمان في مرجعياتها الفكرية ومرتكزاتها النظرية وأدواتها المنهجية، إلى التنظير الروائي عند المنظرين السوسيولوجيين الأول (هيغل، لوكاتش، باختين...)، الذين انشغلوا عبر مراحل متطاولة بالتنظير للرواية، معتبرين أنها الشكل السردي الحديث، الذي أنتجته تحولات اجتماعية وثقافية وفكرية عرفتها المجتمعات الغربية. وقد نظروا لهذا الشكل وقدموا تصورات نظرية ونقدية تتخذ من الفلسفة الماركسية مرجعا، ومن التفسيرات الماركسية للسوسيولوجي والثقافي مرتكزا لتقديم نظرية نقدية لظهور الرواية في المجتمعات الغربية متسقة ومتجانسة، لكنها وإن عملت على تنويع مداخل النظرية الأدبية الحديثة لظهور الأنواع والأشكال الأدبية فإنها تظل ـ في نظرنا ـــــ نظرية أدبية تستند في تفسيرها لظهور الرواية إلى أوضاع اجتماعية وثقافية عرفتها مجتمع الشمال بتكويناته الاجتماعية والثقافية المختلفة، وإلى أوضاع من التخاطب اللغوي والأدبي خاص بتلك المجتمعات، لا تنطبق على الأوضاع الاجتماعية والثقافية لمجتمعات الجنوب ذات التكوينات الاجتماعية المختلفة، ولا على أوضاع تخاطبها اللغوي والأدبي الخاصة بها، التي أدت إلى ظهور الأنواع والأشكال الأدبية بها، ولما يقوم بين العالمين من فروق واختلافات في الإنسان والمكان والزمان.

2.5.1 ـــ لقد سعى منظرو النظرية الأدبية الغربية لاحقا إلى تجاوز هذا التنظير وأطروحته، فقدموا نظرية للأجناس الأدبية، كان للشعريين منهم الحظ الأوفر في تشييدها، وللسرديين من هؤلاء نظريتهم في تفسير ظهور الأشكال السردية، المخالفة لنظرية سوسيولوجيا الأدب والناقضة لأطروحتها، وهي نظرية تشدد على دور اللغة والخطاب وتحولاتهما في ظهور الأشكال السردية عامة والرواية منها. فالخطاب الأدبي عند الشعريين وليد تحولات لغوية تنشأ في حواضن القول ومحافل التواصل، وليس وليد تحولات اجتماعية طبقية، فالخطاب الأدبي وطيد الصلة باللغة والخطاب، وسليل خصوصية القول وعبقرية اللغة. ومن هنا اقترب التنظير للأشكال السردية، مع هؤلاء من التخوم الحاضنة لسؤال الهوية، ووقف على مشارف الحدود الموصلة لكيان الإبداع، فانشغل بخصوصية الكتابة السردية، وأسئلة الذات المبدعة، في بحثه عن الإجابة عن هوية الأشكال السردية والرواية منها.

السرديات التاريخية والتنظير للرواية: سردية رواية الجنوب.

6.1.- والطرح الذي سعينا منذ سنوات[1] إلى بلورة نظريته واختبار أطروحته، ضمن خيار الشعرية وتطبيقاتها في التجربة العربية، ينطلق في تنظيره للأشكال السردية من أطروحة مؤداها، أن ظهور الأشكال السردية عامة، والرواية منها خاصة، يأتي وليد تراكم طبقات القول المعبرة عن "الاجتماعي" والمجلية "للثقافي"، في المحافل اللغوية الحاضنة لها في مجتمع من المجتمعات، وليس نتاج تحول في طبقات المجتمع ـــ المؤدي إلى بروز الطبقة الوسطى منها، باعتبارها الحاملة للوعي، والمعبرة عن الرؤية للعالم على نحو ما تؤسس عليه نظرية سوسيولوجيا الأدب أطروحتها النقدية في تفسيرها لظهور الرواية في المجتمعات الحديثة- بل هي نتيجة لتحولات لغوية تعرفها المحافل اللغوية والحواضن التواصلية. فالمحافل اللغوية هي الحواضن اللغوية لمنابت الخطابات الأدبية، التي يُرجع إليها، للبحث عن العوامل المؤدية لظهور الشكل السردي، فالبحث عن ظهور الأشكال سردية والرواية منها في مجتمع من المجتمعات، وفي ثقافة وأدب من الآداب هو من منظور السرديات التاريخية، بحث في تحول طبقات الكلام المولدة للنثرية، التي من منابت قولها ينشأ خطاب السرد، وعنها تتولد أشكاله السردية، ومن هنا جاء ارتباط ظهور الشكل السردي بلغة كتابته وعبقرية لغته وهوية كاتبه.

ـ رواية الجنوب وخلخلة الوعي بنظرية الرواية: سردية رواية الصحراء.

7.1.- لقد ظلت سلطة طرح السوسيولوجيين في التنظير للرواية، ممتدة في بعض البيئات العلمية العربية، حية في الفكر الأدبي العربي الحاضن لها، ولم يسهم استقبال النظريات النقدية الناقضة لنظرية سوسيولوجيا الأدب واللاحقة عليها(النظرية النقدية البنيوية، الشعرية، السيميولوجيا) في هذه البيئات، في أن يؤسس لوعي نقدي، يقدم تنظيرا للأشكال السردية ينقض هذا الطرح، ويخفف من

---

[1]- مثلت الشعرية وتطبيقاتها في التجربة العربية وخاصة السرديات منها مشغلا علميا وبحثيا لي ولطلابي الباحثين أصدرت فيه أعمالا وبحوثا منها، كتاب" بنية الخطاب ودلالتها في رواية القبر المجهول أو الأصول لاحمدو ولد عبد القادر: مساهمة في الكشف عن خصوصية السرد الموريتاني، تقديم أ. د. سعيد يقطين، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1999. وكتاب "الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني: قراءة لظهور الأنواع والأشكال، تقديم أ. د. محسن جاسم الموسوي، دار الأمين، القاهرة، 2001، وكتاب "شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص، تقديم د. سعيد يقطين، الكتاب الفائز بجائزة شنقيط للآداب 2004، منشورات جامعة نواكشوط 2012. وكتاب "الأدب الموريتاني: خطاب النقد وشعرية النص (مساهمة في تجذر تطبيقات الشعرية في التجربة العربية)، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين نواكشوط 2013، وكتاب" القراءة وتأسيس القراءة: مساهمة في تجذر تطبيقات الشعرية في التجربة العربية، منشورات، جامعة نواكشوط، 2015.

وطأة الانصياع التلقائي لسلطة التنظير السوسيولوجي للأدب. فاستمر التفسير السوسيولوجي لظهور الرواية عند لوسيان كُولدمان طرحا نظريا سائدا، ووعيا نقديا قائما في هذه البيئات العلمية العربية في الربع الأخير من القرن العشرين، وتعززت مرتكزاته النظرية باستفادته من أدوات البنيوية، فأصبح أطروحة متداولة، ووعيا مهيمنا على التفكير المنهجي والذهنية النقدية في هذه البيئات. ولم يتخلخل الوعي بمسلمات هذا التفسير، النظرية والمنهجية إلا بظهور النص الإبداعي ذاته(رواية الصحراء)، مع روائيين عرب ينتمون إلى فضاء الصحراء، فكان ظهور رواية الصحراء في بعض البلدان العربية ذات التكوينات الاجتماعية الصحراوية، الفعل الإبداعي المُظْهر لعدم تماسك هذا الطرح والمقوض لمسلماته، الناقض لهذا الطرح؛ والخطاب الإبداعي المخلخل لتفكيره النقدي، في اتجاه يدفع إلى إعادة النظر في مسلمات هذا الطرح، ويدعو النقاد والمدرسين الباحثين إلى ضرورة مراجعة بعض مسلمات النقد العربي الحديث المعيقة لتطوره وتجديد فكره وتحرر ذهنيته النقدية من سلطة النقد الأكاديمي المدرسي وسلطان عقله. وبذلك تثبت الكتابة الإبداعية في تاريخ الأدب العربي الحديث أنها صنو النقد في الإسهام في تطوره وتجديد فكره الأدبي.

ـ السرديات التاريخية ونقض أطروحة كولدمان: سرديات النثرية.

8.1- وعلى الرغم من أن أطروحة لوسيان كولدمان في التنظير للرواية ما زالت حية تكرس، وتلقى استحسانا نظريا ومنهجيا في العديد من البيئات العلمية العربية، فإنه من الملاحظ أن الفكر النقدي في بعض هذه البيئات، قد عرف بروز وعي نقدي ناقض لنظرية سوسيولوجيا الأدب، مسائل لمرتكزاتها النظرية ولأدواتها المنهجية المحققة لشروط قولها. وقد بدأ أصحابه يأخذون مواقع تأثيرهم في المحافل العلمية لهذه البيئات، ويحظى الطلاب الباحثون الحاملون لفكره، بالاهتمام العلمي داخل المجالس العلمية لوحدات التكوين العليا، وفي اللجان العلمية للأطروحات والنشر العلمي بالجامعة، نتيجة لما عرفه النقد في البيئات العلمية العربية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين من تطور ملحوظ على مستوى النظرية والمنهج والتفكير؛ يُبِينُ عن مستوى من الوعي بالنظرية النقدية، يبرز لا في التمكن من مناهجها النقدية بأطروحاتها المتعددة فحسب، وإنما أيضا على مستوى تعامل النقاد الباحثين مع الموضوع؛ واكتسابهم ذهنية نقدية أكثر تحررا من سلطة التنظير النقدي الغربي المدرسي[1]؛ وأقدر على تطبيقات المناهج، التي يختارونها؛ وفقا لرؤيتهم النقدية الخاصة .

---

[1] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: السرديات البويتيقية ومشغل الدلالة: تجربة النقد البويتيقي السردي العربي، علامات في النقد الأدبي، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد 9، الجزء 33، سبتمبر 1999، ص/331

1.8.1ـــــ وقد كان حظ الشعرية وتطبيقاتها من هذا الوعي والممارسة بارزا، حيث برزت أسماء مؤسسة لهذه النظرية الأدبية وتطبيقاتها المنهجية في التجربة العربية في مختلف البيئات العلمية العربية؛ كان لها الدور الرائد في تكوين جيل من الأساتذة الباحثين الشباب حينها، في أغلب الجامعات العربية نهاية التسعينيات المشتغلين بالشعرية، والمتبنين لأطروحتها خيارا للمقاربة والتنظير؛ وخاصة منهم أصحاب اختصاص السرديات ؛ حيث حظي السرد وأشكاله بالدراسة والتنظير، وأنجزت في هذا المجال أطروحات جامعية مؤسسة، وأعدت دراسات مهمة رائدة، وألفت كتب نقدية عمدة، ونظمت ندوات متخصصة جامعة، ونشرت بحوث علمية رصينة. هذه الجهود كلها كانت الحاضنة المعرفية والمنهجية؛ التي أدت إلى ظهور السرديات وتطبيقاتها المنهجية في البيئة العلمية العربية. وقد صاحب هذا الظهور فكر أدبي ووعي نقدي عربي، بدأت ملامحه تتشكل في البيئات العلمية العربية وحواضنها الثقافية من ذو العقد الأخير من القرن العشرين؛ – يتبنى السرديات منهجا لمقاربة النص السردي والتأريخ للأنواع السردية وأشكالها، إسهاما منه في تعميق الوعي المعرفي والعلمي بالسرديات في البيئات العلمية العربية من جهة، وتقديم سرديات عربية متفاعلة مع ما تشهده السرديات في المحافل العلمية الدولية من تطور حيوي وسريع، تتطلب مواكبته والمساهمة فيه، متابعة علمية دقيقة لحواراته العلمية وتطبيقاته المنهجية، واطلاعا واسعا على منشوراته وإصداراتها وتتبعا نشطا لمتداوله العلمي.

– سرديات النثرية وظهور الأشكال السردية: الأطروحة البديلة.

9.1.– وفي إطار ترسيخ التصورات السردية المؤسسة التي اضطلع بها في السرديات العربية الجيل المؤسس،[1] ظهرت في بعض البيئات العلمية العربية تصورات نقدية مؤكدة على المنحى التأسيسي العام الذي سنه السرديون الأول، تحمل هذه التصورات رؤية الجيل الثاني[2] وطرحه من السرديين العرب من مدرسي السرديات في الجامعات العربية، ممن تتلمذوا على الجيل المؤسس وانخرطوا في مشروعه العلمي وأسسوا لذواتهم خيارات منهجية، ومسارات علمية اختلفت من تخصص لآخر،

---

[1] . من جيل السرديين العرب المؤسسين يمكن أن نذكر تمثلا لا حصرا د. سعيد يقطين و. د. عبد الله إبراهيم ود. سيزا قاسم ود. سعيد بنكراد و. د. محمد الناضي و. د. محمد الداهي.... وغيرهم ممن عرفوا بإسهاماتها العلمية البارزة في تأسيس سرديات عربية، أصبحت اليوم في البيئات العلمية العربية سلطا ومراجع علمية معروفة.

[2] . من الجيل الثاني من السرديين العرب، الذين تتلمذوا على الجيل المؤسس، مدرسو السرديات اليوم في أغلب الجامعات العربية، ممن أنجزوا أطروحات وأصدروا أعمالا وأشرفوا على بحوث وأطروحات جذرت السرديات التطبيقية في التجربة العربية، ونوعت من خياراتها المنهجية وأطروحاتها النظرية.

وتنوعت من مشغل لآخر. وهي تصورات تمايزت في آرائها النقدية وأطروحاتها العلمية من حاضنة علمية لأخرى. وقد أسهم هذا الجيل في العقدين الأولين من هذا القرن في توسيع قاعدة المشتغلين بالسرديات في البيئات العلمية العربية، بتخريجه لجيل ثالث من الباحثين السرديين الشباب، المتخذين من السرديات التطبيقية مشغلا لبحوثهم وأطروحاتهم في مدارس الدكتوراه ومراكز البحث بالجامعات العربية.

1.9.1 – وقد اطلع الجيل الثاني من السرديين العرب – إلى جانب أساتذته – بمهام علمية وتكوينية أساسية في البيئات العلمية التي ينتمون إليها، مساهمات في تجذير السرديات في التجربة العربية، بتعمقهم للقضايا التي أثارها المؤسسون، ومواجهة الأسئلة التي طرحوا، فتحددت معهم الاختصاصات والمشاغل السردية، وتمايزت المرتكزات النظرية، وتنوعت المداخل النظرية التي يصدرون عنها، والخيارات المنهجية التي يختبرون. فظهرت في السرديات العربية: سرديات شعرية وسرديات سميولوجية تفرع عن الشعرية فرع حصري وآخر توسيعي، وعن السميولوجية نموذج عاملي وآخر نصي. وقد كان للجدل المعرفي الذي عرفته صفحات الكتاب النقدي والجامعي، والنقاشات العلمية التي دارت في ساحات الدرس وداخل قاعات النقاش بالجامعة، أثرها الكبير في بروز تصورات نقدية متعددة ومتنوعة، هي اليوم في البيئات العلمية العربية، مدار لحوار معرفي وعلمي بين المنشغلين بالسرديات وأصحاب هذه التصورات، ومحل للنقاش وللمساءلة في بحوث وأطروحات الجيل الثالث من الباحثين السرديين الشباب. ولئن أفرزت هذه الحوارات والنقاشات العديد من الآراء والتصورات النقدية والأطروحات، هي في عمومها اليوم المحتوى العلمي لأهم القضايا والأسئلة التي تطرحها السرديات في البيئة العلمية العربية، فإننا سنكتفي هنا بعرض تصور من هذه التصورات المراجعة لنظرية الرواية عند لوسيان كولدمان، وهو طرح يناهض المرتكز السوسيولوجي الذي اعتمد عليه في تفسير ظهور الرواية والأشكال السردية، ويسائل الخلفيات النظرية المؤسسة لأطروحته في بنائها للمعرفة، ويختبر الأدوات المنهجية المنتجة لها.

سرديات النثرية: ظهور الرواية تحول في طبقات القول وتمايز لنثرياتها:

10.1. - يتأسس الطرح الذي نسعى لبسطه هنا، على مرتكز نقدي نصي، يستند في مداخله النظرية إلى الشعرية وأدواتها المنهجية في انطلاقها من" الأدبي" مجالا للبحث وانشغالها بالأدبية موضوعا للبحث، بكشفها لما به يكون النص الأدبي نصا أدبيا من جهة، واشتغالها بالخطاب في وصفها لسردية الخطاب السردي، واكتشافها لمأتي الحسن ومستويات الإمتاع والمؤنسة فيه من جهة ثانية. وهو تصور يفسر نشأة السرد وظهور أشكاله انطلاقا من أطروحة " السرديات التاريخية"، التخصص

النقدي الدقيق من اختصاص السرديات، الذي يتخذ من تاريخ الخطاب السردي في ثقافة من الثقافات، ومجتمع من المجتمعات موضوعا للبحث والدراسة، ومن ظهور الأشكال السردية فيه، مشغلا علميا يتم فيه البحث عن نشأة خطاب السرد في الحواضن اللغوية والمحافل الثقافية للمجتمعات في تعبيرها عن" الاجتماعي" و"الثقافي" و"الأدبي".

1.10.1- ويعتبر هذا المشغل السردي أن الأشكال السردية عامة (رواية، قصة، أشكال سردية تراثية) تظهر في مجتمعات اللغة، نتيجة لتراكمات نثرية، مُوَلِّدَةً للخطاب السـردي، حاضـنةً له ومحققةً لسرديته. فالبحث عن ظهور الأشكال السردية في ثقافة من الثقافات ومجتمع من المجتمعات ـ من هذا المنظور –هو بحث في طبقات لغة حية، قادرة في تطويعها للنثر المرسـل على إنتاج نثرية أدبية، محققة لجماليات سردية ممتعة ومؤنسة. ومن ثمة فالبحث عن العوامل المؤدية لظهور شكل من الأشـكال السـردية، هو بحث في طبقات القول المولدة لنثريات الكلام المرسـل، في محافلها التواصـلية وحواضـنها اللغوية المطوعة للغة، والمعبرة عن" الاجتماعي" و" الثقافي" في مجتمع من المجتمعات. وهو أيضـا وصـف للتراكمات النثرية لهذه الطبقات في مستوياتها التواصـلية والبلاغية والأدبية المولدة لأدبية الخطاب السردي. فالسـرديات التاريخية وهي تؤرخ الأشـكال السـردية، تتكئ على السرديات الوصفية وأدواتها في الكاشف عن تاريخ ظهور الأشكال السردية، وعن مراحل تشكل الخطاب السردي فيها. فتصف درجات اشتغال مكونات الخطاب المحققة للسردية عند كل جيل من القصـاص والروائيين، في لحظات انتقالها الزمني من سـردية بسـيطة إلى سـردية مركبة، وتحولها الأدبي من سردية وضوح لها مأتي من الحسن والإمتاع، تتأسس على طرائق من اشتغال مكونات الخطاب خاصـة بها، إلى سـردية غموض لها مصـادرها في الحسـن والإمتاع والأنس مختلفة عن سـردية الوضـوح، وهي التي تجذر الخطاب السـردي في منابت من القول، ومدارج من المجاز والدلالة متنوعة، تتفاوت فيها النصوص السردية. ومن هذا المدخل اعتبرت الشعرية التاريخية تاريخ الأدب، تاريخ للتحولات الأدبية المؤدية لظهور الأنواع الأدبية وإشـكال تحققها، وللتغيرات الأدبية التي عرفها تاريخ تشـكل الخطاب الأدبي[1]، في انتقاله من أدبية، طرائق اشـتغال مكونات خطاب

---

[1] ـ من الأعمال التي تبنت السرديات التاريخية مدخلا للتأريخ للرواية العربية، كتابي" السرديات والرواية الموريتانية: لتاريخ تشكل الخطاب في نصوص الرواية الموريتانية من 1981 إلى 1996"، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، دار الفكر 2010.

الأدبي بسيطة إلى أدبية طرائق اشتغال مكونات خطاب الأدبي مركبة. وهذا ما عناه جيرار جنت بقوله إن" تاريخ الأشكال الأدبية، يمكن أن نسميه التاريخ الأدبي بامتياز"[1].

طبقة القول: النثر المرسل والنثرية.

2.10.1. ـــــ يشمل تطويع اللغة مستويات من النثر متعددة ومتنوعة، متعددة تعدد مستويات طبقة القول، ومتنوعة تنوع الخطاب اللغوي والنسق اللساني المعبر عنه والمحقق لسلطته. وتتشكل طبقة القول من مستويات نثرية ثلاثة، يتداخل فيها التركيبي والبلاغي والجمالي، وبهيمنة أحدها يظهر نوع النثر المرسل، فيكون نثرا تواصليا أو بلاغيا أو أدبيا. وبتراكم مستويات النثر تنشأ النثرية، ويتحدد نوعها بهيمنة نسق لساني بها في مستوى من المستويات الثلاثة، ولا تكتمل الدورة اللغوية لطبقة القول، إلا ببروز نثرية من القول تُحَدد ملامحها، فتظهر الطبقة السفلى بهيمنة المكون التركيبي، وتُجسد مظهره التواصلي نثريةُ تواصلية. وتظهر الطبقة وسطى بهيمنة المكون البلاغي، وتجسد مظهره البلاغي نثرية بلاغية. وتظهر الطبقة الأدبية بهيمنة المكون الجمالي الشعري وتجسد مظهره الأدبي نثرية أدبية.

1.2.10.1. ـ ويتحدد الفرق بين النثر المرسل والنثرية، هنا في أن:

ـ " النثر المرسل: تطويع للسان يعبر عن إبانة من القول اللغوي، الموافق لشروط اللغة المعبر بها في إجرائها وطرق تركيب مجازها،"[2]. فالنثر العربي مثلا هو تطويع للسان العربي، المعبر عن إبانة من القول العربي الفصيح، الموافق لشروط الفصحى، في إجراء لغتها وطرق تركيب مجازها وشروط تحقق إبداعها، ولكل نثر لغوي أنساقه اللسانية التي يطوع من خلالها.

ـ والنسق اللساني: هو" الإبانة عن معنى ما، وفق تقاليد من القول معينة، تجعل هذه الإبانة ذات سمة لغوية مميزة ومفارقة لسواها، نتيجة لاكتساب هذه الإبانة معجمها اللساني الخاص بها، وطريقتها الخاصة في إجراء اللغة وتركيب مجازاتها، وفق سنن من القول اللغوي محددة،"[3]. وقد عرف اللسان العربي بتعدد أنساقه اللسانية -شأنه شأن أي لسان-التي حققت فعل قوله اللغوي، وكونت خبرة تطويع الفصحى عبر الزمن، وهي الأنساق التي يمكن أن نذكر منها: النسق اللساني

---

[1] Gérard Genette ; Figures 3 . op ,cit..p.19

[2] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني: قراءة لظهور الأنواع والأشكال، تقديم أ. د. محسن جاسم الموسوي، دار الأمين القاهرة، 2001، ص/76

[3] ـ المرجع السابق، ص/ 76

الصوفي، والنسق اللساني الفقهي، والنسق اللساني الفلسفي وغيرها من الأنساق التي أنتجها تطويع النثر العربي الفصيح، لحاجة تواصلية أو بلاغية أو جمالية.

ـــــ أما النثرية: فهي" فعل الكتابة الحاصل بتطويع النثر للمرسل لغرض كتابي ما، وفق شروط إبانة اللغة المكتوب بها. والنثرية بهذا المعنى فعل لغوي متحقق وفق سياق محدد، وعبر نسق لساني متميز ومحدد"[1]. ومن هنا جاء ثراء النثرية وتعددت أنواعها ومصادر ثرائها في اللسان، وانقسامها في كل لغة إلى نثرية تراثية ونثرية حديثة؛ ولكل منهما أنساقه اللسانية المتعددة والمتنوعة وأشكال كتابتها التعبيرية والأدبية. فالنثرية العربية مثلا هي فعل الكتابة الحاصل بتطويع النثر العربي الفصيح لغرض كتابي ما، وفق شروط إبانة العربية. وهي متحققة وفق سياق محدد، وعبر نسق لساني متميز ومحدد. ومن هنا جاء ثراء النثرية العربية وتعددت أنواعها ومصادر ثرائها في اللسان العربي. فلكل من النثرية العربية التراثية والنثرية العربية حديثة؛ أنساقها اللسانية وأشكال كتابتها، التي ساهمت في ثراء اللسان العربي، وتعدد أشكال كتابتها التعبيرية المرتبطة بالوظيفة التواصلية أو البلاغية، وأشكال كتابتها الأدبية عامة، والسردية خاصة المرتبطة بالوظيفة الشعرية الجمالية.

2.10.1ـــــ يختبر هذا التصور أطروحة مؤداها " أن أشكال الكتابة عامة لا تظهر إلا في سياق هيمنة نثرية معينة "[2] وأن نشأة الأشكال السردية عامة والرواية منها، نتيجة لتراكم طبقات من القول النثري المُهيئ لبروز نثرية من القول المرسل، تؤدي تراكماتها النثرية إلى ظهور نثرية أدبية محققة لجماليات الخطاب السردي. فالأنواع الأدبية بأشكالها في تاريخ الأمم والحضارات-من هذا المنظور-مرتبطة في منابت قولها ومحافل تعبيرها بلغات هذه الأمم وثقافتها وحضاراتها، فهي المعبرة عن" الاجتماعي" فيها والمكثفة " للثقافي" منها. فالإنسان إنما وجد واختلفت حياته عن حياة الحيوانات الأخرى، حينما تكلم وعبر عن أحاسيسه وأفكاره وعلاقته بالآخر، فهو كائن اجتماعي لأنه عبر عن" الاجتماعي" بلغته وخطابه، ولذا ف" اللغوي"ـــ الذي منه تنشأ الأشكال وفيه تتغرس منابت قولهاـــــ سابق على" الاجتماعي " في حياة الإنسان، عند أصحاب فلسفة اللغة ونظريات الخطاب، ووجوده مرتبط باللغة والفكر، لأنه حيوان ناطق بلغته موجود بفكره (أنا أفكر إذن أنا موجود). هذا الاهتمام المركزي ب" اللغوي" في دراسة " الثقافي" عامة والأدبي منه خاصة، نجده عند المنظرين لفلسفات الأشكال الأدبية ومنظري الخطاب الأدبي في اهتمامهم بالمستويات العليا من الكلام، ف "هيدغر" اعتبر أن الشعر هو مبتدأ الكلام الأدبي، والإنسان عنده تكلم أول ما تكلم

---

[1] ـ المرجع السابق ص/ 77

[2] – محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، المرجع السابق، ص/ 74

بالشعر، وخالفه" بول ريكور"[1] في ذلك عندما اعتبر أن الإنسان أول ما تكلم تكلم بالسرد، لأنه حكى عن نفسه وعن الآخر.

سرديات النثرية وطبقات الكلام: لحظات تشكل الخطاب.

1.11.1. – والذي يبدو لنا أن ظهور الأنواع والأشكال الأدبية عامة والسردية منها خاصة، في مجتمع من المجتمعات وثقافة من الثقافات، مرتبط بمحافل لغة تلك المجتمعات ومستويات تطويعها وطبقات قولها المعبرة عن "الاجتماعي" والمكثفة " للثقافي"، ومظان البحث عنه تكمن في سياق تطويع كل لغة، وتجربة تطوير أدائها عبر مستويات ثلاثة: المستوى التواصلي والمستوى البلاغي والمستوى الأدبي، ويبرز في كل مستوى من هذه المستويات نثر مرسل من القول التواصلي الفاره، والبلاغي البليغ، والأدبي الجميل. ويؤدي تراكم هذا النثر المرسل في المحافل النشطة ذات التقاليد اللغوية الراسخة في اللسان، إلى بروز نثرية من القول في كل مستوى من المستويات الثلاثة، تتطور في مسارها اللغوي وتتدرج في تشكل خطابها من نثرية تواصلية إلى نثرية بلاغية فنثرية أدبية، مشكلة بذلك طبقات من القول، يتفاوت المتكلمون في مدارجها، تفاوتهم في حذق اللغة والكفاءة البلاغية والقدرة الإبداعية.

1.11.1. – ففي النثرية التواصلية المنتجة للنثر المرسل، المعبر عن خطاب الذات، يتفاوت المتكلمون في حذقهم للغة وكفاءتهم التعبيرية، في أن يعبروا عن حاجاتهم التواصلية النفعية، فتُؤدي الرسالة، في هذا المقام، إحدى الوظائف النفعية الخمس للخطاب، التي بينها رومان ياكوبسون في نموذجه التواصلي[2]، وفي هذا المستوى من التطويع تنشا طبقة من الكلام يتفاوت فيها المتكلمون في قدرتهم على التعبير عن الذاتي والسيري والاجتماعي، وفي تمكنهم من حذق عبقرية اللغة والتصرف في طرائق ترتيب الكلام، وفيها يبرز المتكلمون الحاذقون الماهرون في التعبير، ويقتر اتساع دائرة كلام هؤلاء في مجتمع اللغة، تظهر نثرية تواصل نشطة ومؤنسة، يحص فيها المتكلمون المهرة بجمال التصرف في التركيب ومتعة التواصل، وهي أولى لحظات تشكل النثر المرسل الحاضن للسرد.

2.11.1.– ويتجذر تطويع اللسان في هذا المستوى من الأداء اللغوي تنبت على هذه الطبقة من القول طبقة ثانية من الكلام البليغ، مولدة لنثرية بلاغية، منتجة للنثر البليغ، الحامل لخطابات

---

[1] - بول ريكور: الوجود والزمان والسرد، مقال "الحياة بحث عن السرد"، ترجمة وتقديم، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، 1999، ص/43

[2] - رومان ياكوبسون: قضايا الشعرية: ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، ص/33

المجتمع والثقافة، المعبر عن التواصـــل الاجتماعي، وفيها يتفاوت "المتكلمون الكبار" قياســا على الناخبين الكبار – في كفاءتهم البلاغية في التعبير عن خطابات المجتمع، بطرائق من الإبانة ومستويات من التعبير البليغ المطابق لمقتضيات أحوال الناس في تواصلهم الاجتماعي، وفيها تتسع دائرة القول البليغ وتتمايز خطابات المتكلمين البلغاء، في حواضـــن أدائها النشـط للغة، كالصـــحافة والمحاماة والقضـاء والسياسـة والتدريس غيرها من مقامات القول المرتجل والمكتوب المتحددة، فيبرز في المحافل اللغوية متكلمون نماذج يحظون بسلطان البيان وسلطة الحجاج، يحضـرون في أذهان المتكلمين المهرة من أصـــحاب النظرية التواصـــلية، باعتبارهم القدوة والنموذج في البلاغة والحجاج، ويظهرون في قوائم المتكلمين الكبار لمجتمع اللغة، المؤدين لســـلاســـل القول البليغ، المعتمدين في سجلات مجامع اللغة أسانيدَ في اللغة وسلطاً في أداء الخطاب. وبثبات هذه الطبقة من القول على الطبقة التواصلية، تجذر اللغة مناببت قولها اللغوي في الاجتماعي، ويتشرب المتكلون البلغاء عبقرية اللغة وبلاغتها، ومعها تبرز اللحظة الثانية من تشكل النثر المرسل البليغ الحاضن للسرد، والمهيئ لظهور خطابه.

3.11.1. ـــ وباحتضان محافل اللغة لهذا المستوى الثاني من التطويع للغة، تثبت على هذه الطبقة من القول طبقة ثالثة من الكلام الجميل، مولدة لنثرية أدبية منتجة للنثر الأدبي الحاضـــن للأنواع الأدبية (الشـــعر/السـرد/المســـرح)، تســتمد مناببت قولها من الطبقتين التواصـــلية والبلاغية، وتمثل تراكماتها الطبقةَ العليا من التطويع الأدبي للغة المولدة لخطابات الأدب، وفيها يتفاوت المبدعون في مدارج شـعرية القول الأدبي المحققة لمأتي حسـن الكلام ومسـتويات الإمتاع والأنس فيه، وفي مراقي المعاني الأدبية المجلية لطرائق تكثيف "الأدبي" ومصـادر دلالاته، في خلق الدهشـة وكسـر آفاق التلقي. وفي هذا المســـتوى من اللغة العليا[1] من الكلام، يأخذ المبدعون منازلهم في مقامات الإبداع، ومواقعهم في مدارج الروح الأدبي: بحسب تمكين ألسنتهم من سنن القول الأدبي، المتجذر في أنسـاق عبقرية اللغة المنتجة للخطاب، والمتأصـــل في تراث القول الأدبي المرتبط بالنص، ومن حذقهم لجماليات ألفتهم لهذا السنن وأنسهم لتلقيه، ومن قدرتهم على الخلق والإبداع. فيتموقعون بذلك في مدارج شـعريات القول وسـلالم الإبداع، منتجين لخطاب أدبي، قصـديةُ القولِ فيه غير نفعية، هذه المرة كما في الطبقين السابقين، محققة للوظيفة السادسة من وظائف النموذج التواصلي لرومان ياكوبسون (الوظيفة الشعرية)، التي يصبح معها القول الأدبي (الخطاب) غير منته: لأنه لا

---

[1] . جان كوهن: اللغة العليا: النظرية الشعرية، ترجمة، أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1995

يَلْفَذُ بمعرفة قصـدية قوله، كما يحصـل في الوظائف النفعية الخمس الأخرى، فكل منلق يجد حظه من المعني ونصـــيبه من التأويل، ويبقي بعده قابلا لان يعطي معنا آخر، ويحتمل تأويلا آخر. ويصـير القول الأدبي مع هذه الوظيفة خطابا أدبيا مستقلا عن المؤلف لا سلطان له عليه، ممتدا عبر الزمن يحي بالقراءة والتلقي.

1.3.11.1 –وفي هذه الطبقة من القول تنفتح دائرة القول الأدبي على عوالم من الإبداع، صيغ أدائه التعبيري متنوعة، تضـع المبدع بين خيار **الاقتصـاد في القول** والاشـتغال باللغة (نوع الشـعر) أو خيار **الإفاضة في القول** بنوعيه: النوع المحقق لأدبية القول المسرود الممتع للسامع والمؤنس القارئ (السرد)، وسلطة الخطاب فيه للأذن. والنوع المحقق لأدبية القول المعروض الممتع للمشاهد والمبهج للمتفرج (المسـرح) وسـلطة الخطاب فيه للعين. وفي هذه الطبقة من اللغة العليا يبرز في المحافل الأدبية مبدعون شـعراء وأدباء مشـهورون بجماليات من قول المتفرد، ودلالتيات من القصـد البكر، تخلق سـنن من القول الأدبي، تثير دروب الإبداع وتعمق مداركه، وتوســع من مســالك الكتابة ومسـاحتها، وتجدد دماء المشـتغلين بها. وبها تصـنف نصـوص هؤلاء في اتجاهات من الإبداع الأدبي ما تلبث أن تصـــبح في محافل اللغة وحواضـــن الثقافة محجة من محجات الإبداع يؤمها المبدعون، فتصـبح أسماؤهم محل تداول نشط في الأوساط الثقافية، وتشـغل نصـوصـهم حيزا كبيرا من ذاكرة التداول الأدبي للمبدعين، فيحظون في البيئات العلمية بمســاحات واســعة من الدرس والبحث، يدخل بها هؤلاء المبدعون دوائر التداول النقدي والعلمي بالجامعة وحواضنها الثقافية.

2.3.11.1 –هذه الطبقات الثلاث من القول: الدنيا التواصـــلية والوســطى البلاغية والعليا الأدبية، بأنواع نثرها وبنثرياتها الممكنة العديدة والمتنوعة، هي التي ولدت عبر الزمن في ثقافات الأمم القديمة والحديثة، والثقافة العربية الإسـلامية من بينها، الأنواع التعبيرية بأشـكالها النطقية والكتابية، والأنواع الأدبية بأشـــكال كتابتها المختلفة، فكان ظهورها نتيجة تحولات لغوية شـــهدتها المحافل اللغوية لهذه الثقافات، وعرفتها تراكمات طبقات كلامها، بنثريتها الممكنة ذات الأنســاق اللســانية المتعددة والمتنوعة. فظهرت هذه الأشـــكال في المجتمعات ذات الكثافة النطقية النشـــطة والكتابة الخطابية البليغة والأدبية الجميلة. فكان بذلك ظهور هذه الأشـــكال في ثقافات وآداب الأمم نتيجة لفعل التراكمات النثرية لطبقات الكلام، الناشئة عن الخبرة اللغوية واللسانية في تطويع اللغة وتعبيرها عن "الاجتماعي"، لقصـــديات تواصـــلية وبلاغية وأدبية، وبروز الطبقة العليا من القول من هذه الطبقات المولدة للنثرية أدبية، وليس نتيجة لفعل تراكم الوعي الاجتماعي وتراكب طبقات المجتمع

وبروز الطبقة الوسطى منها، هو المؤدي لظهور الرواية، على نحو ما يقدمه منظور السوسيولوجيا الأدب، المجسد في أطروحة لوسيان كولدمان ذات المرتكز البنيوي التكويني.

طبقات الكلام وظهور أشكال الكتابة: هيمنة النثرية التعبيرية والأدبية.

12.1. ـ والذي عليه سند القول هنا، أن الأشكال التعبيرية عامة والأدبية منها خاصة، لا تظهر في مجتمع من مجتمعات اللغة والتواصل إلا في ظل هيمنة نثرية من القول في طبقة من طبقات الكلام المولدة للأشكال، وهو ما أدى في تاريخ ثقافة الأمم وآداب إلى ظهور أشكال تعبيرية لكل طبقة من طبقات القول خبرتها اللغة، وكان لكل مجتمع لغةٍ حظُّه من هذه الأشكال التعبيرية، المعززة لطاقته التعبيرية (الحكم والأمثال) والمولدة لقوة خطابه البلاغي(الخطب والكتابة الصحفية) والمنتجة لجمالية أشكال أنواعه الأدبية (القصيدة، الرواية، المسرحية).

1.12.1. – فقد أدت التراكمات النثرية في الطبقة الدنيا من القول في محافل التواصل في تراث الأمم، والتراث العربي منها–إلى ظهور شكلين تعبيريين هما شكل" الحكمة أو الحِكَم " و" المثل أو الأمثال"، فكلاهما مثل شكلا تعبيريا لفظيا مدونا دون توقيع، صيغت من خلاله تجربة حياتية على لسان متكلم عام فاره حاذق، صاغ تجربة الحياة، فاستقر معه الكلام "حكمة" تقال أو" مثلا " يضرب.

2.12.1ـــــ وأدت التراكمات في الطبقة اللغوية الوسطى من الكلام إلى ظهور أشكال كتابة نثرية، ذات كثافة بلاغية وحجاجية متفاوتة، هي" الرسالة" و"الخطبة" وغيرهما من أشكال الكتابة النثرية البلاغية القديمة، و"المقالة" و" الخاطرة" وغيرهما من أشكال الكتابة الصحفية الحديثة، التي اقتضتها مقامات الكتابة الصحفية، وأنتجتها نثريات البلاغة الحديثة، ك" الافتتاحية" و"العمود" و" الخبر" و" الحديث" و" المقابلة" و" التغريدة" و"التعليق"، وفرضتها أوضاع التخاطب الجديد عبر وسائل النشر وقنوات البث ووسائط التواصل الاجتماعي، التي خلقت في العقد الأول من هذا القرن حيوية في الاتصال والتواصل، أعطت الكلام تَدَفُّقه، وللخطاب تَدَفُّقه، جعلا القول في المستويين التواصلي والبلاغي النفعيين، نشطا مولدا للنثريات من القول فصيحة وبليغة، حاملة لخطابات اجتماعية متنوعة ومتعددة، لما يمكن أن نسميه ب" المتكلمين كبار" قياسا على الناخبين الكبار، موقعين على هذه الأشكال النثرية في مساحات المقروء، ومؤدين لها في مقامات المسموع والمرئي.

3.12.1.– وأدت التراكمات في الطبقة العليا إلى ظهور أنواع أدبية بأشكال كتابة متعددة، ذات كثافة شعرية متنوعة: منها الأشكال الشعرية أو شكل الشعر (قصيدة العمود، القصيدة الحرة، وقصيدة النثر) والأشكال السردية أو شكل السرد (الأشكال السردية التراثية، القصة القصيرة، والرواية) والأشكال المسرحية أو شكل المسرح (الأشكال المسرحية التراثية، المسرحية الحديثة)،

وهي أنواع أدبية اقتضـــتها مقامات كتابة أدبية، وليدة هيمنة نثرية أدبية حاملة لخطابات إبداعية لشعراء وأدباء ومسرحيين، مؤلفين الأعمال أدبية تتفاوت في مدارج شعريات القول و مراقي قصديات الدلالة، المشـــكلة لجماليات القول الأدبي، والمحققة لما به يكون القول أدبا، ولما به يكون النص نصا أدبيا، ولما به تكون الأشكال التعبيرية أشكالا أدبية.

ظهور الرواية بروز لنثرية عليا من القول وانحسار لنثرية أخرى: تركيب

1.13.1- والأطروحة، التي سعينا إلى بسط مرتكزاتها النظرية ووصف محدداتها المنهجية، وعرضنا للنقاش والمســـاءلة، هي أن تحولات المجتمع وتغير الوعي فيه، هي تحولات في اللغة والخطاب والخبرة اللســـانية، وتغيرات في طبقات القول ونثرياتها، قبل أن تكون تحولات في طبقات المجتمع، فأوضـــاع التخاطب في المجتمعات، هي التي تنشـــأ عنها أدبية قولها و"نظرية كلامها" بتجلياتها وأشـــكالها المختلفة. فظهور الرواية في مجتمع من المجتمعات ليس حدثا أدبيا اجتماعيا مرتبطا بظهور الطبقة الوسطى وقدرتها على الفعل، على نحو ما قال بذلك أصحاب سوسيولوجيا الأدب – وإنما هو حدث أدبي لغوي مرتبط بظهور الطبقة العليا من الكلام فيه، وقدرتها على إنتاج نثرية أدبية مولدة لجماليات من القول الجميل، مناهضـــة لبلاغة القول البليغ في طبقة الكلام الوســـطى، ومتعالية على مهارة القول الفاره في طبقة الكلام الدنيا.

1.13.1 – في أفق هذا الطرح ، وطموحه المنهجي، جاء هذا التصـــور المؤصـــل لكيان رواية الجنوب، والرواية العربية منها، في الشـــعرية التاريخية والســـرديات التاريخية سندا لأطروحة تُفســـر ظهور الرواية في مجتمعات الجنوب، وفق تصور نظري وأدوات منهجية، تكشف عن هوية الأنواع الأدبية وأشـــكالها، من مدخل نقدي يعتبرها أشـــكالا إبداعية ذات خصـــوصـــية حضـــارية، ناشـــئة من حواضـــن ثقافية وتكوينات اجتماعية، لها خصـــوصـــياتها الإبداعية، فهي أنواع وأشكال أدبية سليلة أدبية من القول، وشـــعرية من الإمتاع والأنس، ذات جماليات إبداعية، آتية من محافل لغوية وتواصـــلية خاصـــة بها، ووليدة خبرة لغوية في تطويع اللغة، وتمكين متكلميها في أن تكون لها القدرة على تطويعها، والكفاءة اللغوية في نثر كلامها، بمستويات من الإرسال والتواصل تبدأ بالقول الفاره فالبليغ، وتنتهي بالجميل. وفي كل مستوى من هذه المستويات تنشأ طبقات من القول، متراكبة تثبت العليا على الوســـطى والوســـطى على الســـفلى مولدة تراكما نثريا منتجا لنثريات تواصـــلية وبلاغية وأدبية، بهيمنة إحداها على الأخريات، تظهر أشكال تعبيرية أو أدبية خاصة بكل طبقة، وفقا لحركة لغوية مضـــبوطة، فبانحســـار ســـلطة طبقة القول البليغ في الطبقة الوســـطى انحدار نتراءى منابت القول الفاره، وتظهر الأشـــكال التعبيرية للنثرية التواصـــلية (المثل، الحكمة، القول المأثور)، وبتنامي

سلطة هذه الطبقة صعودا، تبرز مناقب القول البليغ، وتظهر أشكاله التعبيرية (الخطبة، الرسالة، المقالة، العمود، الافتتاحية...)، وببلوغها مراقي القول البليغ، تبرز مناقب القول الجميل، وتظهر أشكال أنواعه الأدبية (القصيدة، الرواية، المسرحية...).

ثانيا: رواية الجنوب والسردية: سؤال سردية الخطاب.

1.2.– وبمثل ما طرحت قضايا هوية الرواية العربية سؤال المراجعة على منظري النظرية الأدبية، طرحت أيضا أسئلة سردية رواية الجنوب على دارسي الخطاب الأدبي ومحلليه، سؤال خصوصية الأنواع والأشكال المؤصلة لكيانها، والمحددة لهوية نصوصها، باعتبارها سردية ذات هوية خاصة، تنشأ من خصوصيات من القول الأدبي مغايرة لرواية المدينة، لها مناقب من القول وصيغ من التشكل وطرائق في تكثيف المتخيل، مختلفة عن سردية رواية الشمال. فالنصوص الخلفية المشكلة لخطابها الروائي، تبرز مآتي من الحسن ومستويات الإمتاع والمؤانسة، تُعدد مصادر السردية وتنوعها، وتفتح شعرية الإبداع على آفاق من سردية متخيل عالم الجنوب وتكويناته الاجتماعية الخاصة، ما زالت السرديات الوصفية تكشف، في كل مرة يتم فيها وصف سردية نص من نصوص رواية الجنوب، عن مواطن من خصوصية الكتابة السردية، مختلفة في أدوات كتابتها عن كتابة رواية الشمال، وتبرز مكامن لسردية الخطاب، مغايرة في مصادر إمتاعها الأدبي وأنسها الشعري، لسردية رواية الشمال ومآتي الحسن فيها. وذلك لتَجَذر رواية الجنوب في طبقات قول مجتمعات الجنوب ولثريات سرديتها، المعبرة عن خطاباتها الثقافية ومنطوقاتها اللسانية، والمكثفة لمتخيلاتها السردية، المجلية لعالم الجنوب الواصفة لمجهول الصحراء.

السرديات التطبيقية ووصف سردية الجنوب:

1.1.2 –وقد سعت السرديات التطبيقية في بعض أقسام التخصص في وحدات التكوين والبحث في الجامعات العربية إلى الانشغال بوصف سردية رواية الجنوب: بوصف مكونات خطابها (الزمن، الصيغة، التبئر) وطرائق اشتغالها، والوقوف على خصوصية سردية الجنوب، باعتبارها سردية مغايرة لسردية الشمال، ولكتشاف النصوص الخلفية المشكلة لها، المحققة لشروط هويتها الروائية، والمحددة لهوية كتابها، وللفضاءات الثقافية والحضارية التي إليها ينتمون.

السرديات الوصفية وحدود سردية الخطاب:

1.1.2.0. – وقد انشـــغلت منذ ســـنوات[1] بملمح من ملامح رواية الجنوب، يتعلق بســـردية رواية الصحراء، يجذر شكلها الروائي في النثرية العربية، ويؤصل كيانها في الكتابة العربية، ويحدد ملامح هويتها الإبداعية، وكلها ملامح تكشف عن سردية رواية الصـحراء وسؤال هوية شكلها وخصوصية كتابتها، وهو ما أبان عن سردية خطاب "الرواية الصـحراء" منوعة لسـردية رواية الجنوب، نريد هنا أن نتخذها نموذجا، للكشـف عن ملمحٍ من ملامح تجذير خطاب الرواية العربية في نثرية العرب ومَنَابِتِ إبْداعِ العَرَبِيَّةِ، وارتباط مكونات خطابها الروائي: في صيغة مسروده، وتبئير عوالمه، وتنظيم أزمنته، وطرائق تكثيف متخيله، ومستويات لغته بعالم الصـحراء وتكويناته الاجتماعية، ارتباطا جعل الباحث عن سـردية رواية الصـحراء ينحاز لأطروحة السـرديات التوسـيعية، ليتمكن من الإمسـاك بتلابيب هذه السـردية المتمنعة عن الواصـفين لها بأدوات السـرديات الحصـرية، المقتصـرين على مآتيها، الناشئة عن طرائق اشتغال الزمن والصيغة والتبئير مصدرا للسردية. والعصية على أصحاب التوسـيع الماسكين بطرف من التعبير ومن الدلالة، لجمعهم بين خيارين منهجيين متوازيين، لا يبلغ البحث عن السـردية مداه في الطرفين. وهذا ما قادنا نظريا ومنهجيا وإجرائيا، ونحن نضـيء سـردية رواية الصـحراء إلى خيار لتوسـيع السـرديات، يتمسك بالتعبير مصـدرا للسـردية، موضـوعا للبحث

---

[1] ـ من المشاغل العلمية التي سعيت إلى الاشتغال بموضوعاتها وتوجيه طلابي الباحثين إلى الاشتغال عليها، السرديات التطبيقية والسرديات التاريخية ففي المشغل الأول أصدرت كتاب "بنية الخطاب ودلالتها في رواية "القبر المجهول أو الأصول" لأحمد ولد عبد القادر: مساهمة في الكشف عن خصوصية السرد الموريتاني. تقديم د. سعيد يقطين، المكتبة الأكاديمية، القاهرة 1999" وكتاب "شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص الموريتاني نموذجا، الكتاب الذي فاز بجائزة شنقيط 2004، الجائزة التقديرية للدولة الموريتانية، وصدر في طبعة ثانية عن منشورات كلية الآداب جامعة نواكشوط 2012 بتقديم أ. د. سعيد يقطين. كما قدمت مجموعة من البحوث التي شاركت بها في بعض المؤتمرات والملتقيات العلمية منها مثلا بحث " الأشكال السردية التراثية والنثرية العربية: النص الموريتاني نموذجا، شاركت به في مؤتمر الرواية العربية الأول القاهرة 1998، وبحث الرواية الموريتانية وازدواجية الأصل: قراءة للثابت والمتحول من النص. في العدد 20 من مجلة ألف للبلاغة الصادرة عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة 2000، وبحث " الرواية العربية والنثرية العربية: مساهمة دور نجيب محفوظ في تطوير اللغة والشكل في الرواية العربية" شاركت به في ندوة نجيب محفوظ المنظمة على هامش مؤتمر اتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بالقاهرة 2006.

وفي المشغل الثاني أصدرت كتاب" السرديات والرواية الموريتانية: قراءة لتاريخ تشكل الخطاب في النصوص الروائية الموريتانية من (1981 إلى 1996) منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، نواكشوط 2010.

للمقاربة، ويوسع في سعيه للوقوف على مكامن سردية رواية الصحراء، من مكونات الخطاب من ثلاث (الزمن، الصيغة، التبئير) إلى خمس (الزمن، الصيغة، التبئير، المتخيل، ومستويات اللغة)، ويسلك سبيل التوسيعين في توسيع السرديات ضمن خيار التمدد (سرديات التمدد[1])، على نحو ما سيكشف عنه الوصف والتحليل لاحقا.

السرديات الوصفية ورواية الصحراء:

2.1.2.0. – لقد كان للروائيين العرب في مناطق متعددة من الصحراء العربية، دور مهم في ظهور رواية الصحراء في تجربة الكتابة العربية، وهو جهد أصلّ الرواية العربية في سرود الصحراء وتراثها المثيولوجي الخاص، بمنطوقاته المتعددة ومَحْكِياته المتنوعة، أطلع به روائيو الصحراء العرب، بتسريدهم لحياة البادية ومجهول الصحراء، واكتشافهم لعالمها الذي ظل إلى حين عند مدرسي النقد المدرسي مرتبطا بالشعر، خاصا به، نتيجة التسليم بالقول بان الصحراء لا تنتج رواية، فهي بنت المدينة وسليلة طبقاتها الاجتماعية، ووليدة رؤية عالم كتابها. وهي" الفرضية ضللت المنظرين الأول للرواية من أصحاب الفكر الأدبي النقدي العربي، وأضلت مدرسي وطلاب الدرس النقدي المدرسي في بعض الجامعات العربية، قبل أن يفضح الإبداع طرح هؤلاء، وينقضه الجيل الثاني من منظري الرواية العربية ودارسي الخطاب السردي نهاية تسعينيات القرن الماضي"[2]، ويتأكد بتتالي صدور روايات صحراء لكتاب وروائيين ينتمون لفضاء الصحراء الممتد من موريتانيا إلى جنوب الجزائر وليبيا وصحراء مصر واليمن وبلدان الخليج من جهة، وبصدور أعمال وبحوث تنظر لرواية الصحراء وتصف سردية خطابها وتكشف عن خصوصية خطابها الروائي وهوية شكلها السردي من جهة ثانية.

---

[1] ـ تمثل "سردات التمدد" الجزء المنهجي من أطروحة" سرديات النثرية " الذي بسطنا مرتكزاته النظرية في الجزء الأول من هذا البحث، وهي مراجعة لأطروحة السردات التوسيعية، جاءت نتيجة لانشغالي بالسرديات واشتغالي على مدونة نصوص رواية الصحراء، و المساءلات النظرية والمنهجية للسرديات ، التي طرحت في البيئات العلمية العربية والأجنبية، نهاية العقد الأخير من القرن الماضي، عندما بدأ المنشغلون بقضايا وأسئلة السرديات وسيميولوجيا السرد، يواجهون سؤال التطبيق ورهانات الممارس العلمية والبحثية، في تأطيرهم لأبحاث وأطاريح الجيل الثالث من الباحثين السرديين الشباب في هذه البيئات، وفي حلقات نقاش وحدات بحثهم ومخابرها المشتغلة بمتابعة بقضايا السرديات وأسئلتها المنهجية والتطبيقية . فقد ظهرت أطروحة " سرديات التمدد" نتيجة لانشغالي بسردية رواية الصحراء في مجموعة من البحوث العلمية والتطبيقية، والتكوينية: أهمها كتاب" شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص" الكتاب الفائز بجائزة "شنقيط الآداب والفنون لعام 2004، الجائزة التقديرية للدولة الموريتانية في مجال الإبداع والبحث العلمي، ونشرته جامعة نواكشوط 2012، وقدم له أستاذي أ. د. سعيد يقطين.

[2] ـ محمد الأمين مولاي إبراهيم: شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص، مرجع مذكور سابق، ص/15

السرديات وسردية رواية الصحراء: تسريد حياة البادية ومجهول الصحراء.

2.2- ولئن ساهم تباين تحديد السردية في إثراء اختصاصي السرديات وسيميولوجيا السرد، وعمق الوعي النقدي والمنهجي بهما، وعمل على إغناء التنظير لأشكال السرد ـــــــ فإن الاشتغال بتنوع السردية في الرواية يسهم في نظرنا في ظهور مشغل سردي يهتم بوصف ملامح تنوع السردية في الخانة الروائية، ويعمل على توزيعها إلى خانات فرعية تبرز اختلاف الأطر الثقافية والمعرفية الحضارية المنتجة لها، وتباين الأنساق السردية واللسانية المتحققة في أفقها. (تصنيف النصوص إلى قوائم: الرواية الاجتماعية، رواية تيار الوعي، الرواية التراثية....). ويميز الخطاب النقدي في وعيه بهذا التنوع بين الرواية العربية والرواية الغربية والرواية اللاتينية والرواية الإفريقية وغيرها من الروايات المنتمية لفضاءات اجتماعية وسياسية متباينة، غير أن تفرع الخانة الروائية إلى هذه الخانات الفرعية لم يمنع في ـ نظرنا ـ من وجود تفريعات أخرى، لها خصوصيتها السردية، التي لم تنل حظها بعد من الاهتمام النقدي، أشهرها خانة "رواية الصحراء"، حيث الصحراء فضاء جغرافي واجتماعي يأخذ مساحة من إفريقيا وآسيا وأمريكا، وله تكويناته الاجتماعية المخالفة لتكوينات مجتمع المدينة، وثقافة وتقاليد سرد مباينة لثقافة الشمال وتقاليد السرد فيه، مما يعني وجود خانة روائية فرعية ذات خصوصية سردية متجذرة في ثقافة الجنوب، وتقاليد السرد فيها.

سردية رواية الصحراء: الملامح السردية وخصوصية القول.

1.2.2. ـــــ وفي أفق الاهتمام بوصف شعرية رواية الصحراء، والاشتغال بملامح سرديتها للإسهام في تعميق مدارك الوعي النقدي بها -نقف هنا عند بعض ملامح سردية هذا الشكل المميزة له، والمحددة لصيغ تشكلها، باعتبارها ملامح تدخل النصوص المجلية لها، تحت قوائم خانة رواية الصحراء، المؤصلة للرواية في سرد الصحراء، بتسريد رواتيها لحياة البادية ومجهول الصحراء. فرواية الصحراء تقدم ملامح سردية محددة لشعرية شكلها السردي، ومنوعة لسردية رواية الجنوب، يمكن أن نعرض هنا لبعض منها، سبق أن وقفنا عليها في كتاب" شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص"[1] بشيء من التفصيل، وهي ملامح تبرز جانبا من هوية رواية الجنوب، وتؤصل منابت سرديتها في عالم الصحراء، ونثريات تكويناتها الاجتماعية والثقافية، فمن هذه الملامح يمكن أن نذكر:

---

[1] ـ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: مرجع مذكور سابقا.

1.1.2.2- ارتباط هذا الشكل الروائي بتأصيلات اجتماعية ذات تكوينات ثقافية واجتماعية صحراوية مباينة لمجتمع المدينة، فالصوت السردي فيه محكوم برؤية سردية مختلفة عن المنظور الروائي لرواية المدينة، والشخصية في نصوص هذه الرواية، تصدر في أفعالها عن تصور للعالم خاص تحكمه تأصيلات فكرية ودينية وإيديولوجية متجذرة في تاريخ الصحراء، وهو ما يتجلى في طرائق استحضار الشخصيات لعالم الصحراء وتصرفها فيه، وفقا للأطر الثقافية والاجتماعية المكونة للشخصية وانتمائها لعالم الجنوب.

2.1.2.2- ارتباط متخيل هذه الرواية بعوالم حكائية خاصة يغذيها عالم الصحراء بتكويناته الثقافية المتصلة بالأسطوري والعجائبي والمرويات الشعبية، ولذلك كان متخيل هذه الرواية متخيلا مخالفا لمتخيل رواية المدينة، لتوظيف الروائي فيه لعالم مرويات الصحراء، وما يكتنفه من حكايات وأساطير وسرود تقليدية.

3.1.2.2- ارتباط موصوفات فضاء الرواية بأمكنة وفضاءات مفتوحة مباينة لفضاء المدينة المغلق، فالروائي يوظف - في هذا الشكل الروائي - جماليات الصحراء بتركيزه على عنصر الوصف لإبراز جوانب مهمة من شعرية الفضاء، يعطي للأشياء في علاقاتها بعالم الصحراء، قيمتها الفنية في الرواية، لذلك كان الفضاء من أهم المكونات السردية المجلية، لشعرية هذا الشكل والمعبرة عن مواطن خصوصيته السردية.

4.1.2.2- ارتباط الصيغة السردية لهذه الرواية بفضاءات اجتماعية وثقافية ذات خصوصية صحراوية محلية، حيث تتعالق الصيغة السردية لرواية الصحراء مع هيئة المجلس وطرائق إنتاج الكلام فيه، باعتباره مقاما سرديا مؤثرا في الصيغة السردية للنص الروائي المنتج فيه، فالصيغة السردية تتأسس على التخاطب بالسرد، فالحكاية تسرد في المجلس وفقا لصيغة من السرد، يتبادل فيها الجالسون أدوار الحديث، بأن يسرد كل واحد منهم جزء من القصة واكتمال دورة الحديث في المجلس والواحد أو المجلس المتعددة تكتمل فصول الرواية، لذلك تعدد الحكايات الرديفة في رواية الصحراء، وهيمنة صيغة تياد الكلام المحقق للتخاطب بالسرد.

5.1.2.2- انفتاح مستويات اللغة في هذا الشكل على الأنساق اللسانية لمجتمع الصحراء بتكويناته الاجتماعية المتعددة وتشرب النص للهجاته من جهة، واشتغال الروائي باللغة مصدرا لتكثيف عالم الصحراء بما فيه من عجائبي وأسطوري من جهة أخرى، وبذلك تمثل اللغة إحدى أهم المقومات الفنية المحددة لشعرية رواية الصحراء ولسردية خطابها.

2.2.2. – من مظاهر خصوصية السرد في فضاءات الجنوب التي بلورتها رواية الصحراء، وعمقتها إبرازها لسردية، مرتبطة بحياة أهل الصحراء وعالم مروياتها ومبصراتها، واتكاء روائييها في تحقيقهم لهذه السردية على أدوات من الكتابة، تجذر الرواية في سرود البادية ومتخيلاتها السردية. لذلك عمد روائيو الصحراء العرب إلى الاشتغال بأدوات من الكتابة تحقق سردية نصوصهم في ارتباطها بالقصة والخطاب. ولئن تعددت المداخل السردية الكاشفة عن مأتي الحسن في هذه السردية، وتنوعت أسئلتها المنهجية، وطرح السؤال: أهي إلى مكونات الخطاب عائدة أم إلى عناصر القصة؟ أ تعبيرية متصلة بالخطاب وطرائق اشتغال مكوناته، أم دلالية مرتبطة بالقصة ودلاليات عناصرها؟ فإن الواصف لمأتى الحسن والإمتاع في هذه السردية، يلاحظ أنها تأتي من آفاق من المتخيلات ومرائي الأحلام وعوالم الموسوفات، ومجالس المرويات ومحافل المسموعات، أكثر مما تأتي من تتابع الأحداث ووقوع الوقائع، والتصرف في الزمن فيها، وطرق تنظيم للخطابات المسرودة والمعروضة؛ لذلك هيمن دور المتخيل ومستويات اللغة في مسيانة سردية رواية الصحراء، على دور بقية عناصر القصة والخطاب. وهي الخاصية السردية، التي جعلت الوصف في السرديات الحصرية (الزمن، الصيغة، التبئير) لا تضيء سردية الخطاب في رواية الصحراء، بما فيه الكفاية، لبقاء مناطق منها غير مضاءة. وقد أدت السرديات الوصفية، في المدونة التي اشتغلت عليها، إلى الوقوف على معالم لسردية روائية تجذر خطابها في جماليات للسرد، مغايرة لجماليات سرد المدينة، تجد منابت قولها في مستويات اللغة في ارتباطها بمقامات قول البادية: بمنطوقات خطابها ومرويات مجالسها ومحظار قولها ومحافل سردها المتعددة والمتنوعة. وتأخذ معالم متخيلها الروائي من عالم الصحراء: بطرائق تكثيف متخيلاته وصيغ مسروداته وطرق تنظيم خبر مروياته، ووصف مشاهده ومبصراته وموسوفاته الغريبة والعجيبة. وهي سردية الهيمنة فيها لطرائق تكثيف المتخيل ومستويات اللغة، فمأتي الإمتاع في السرد وأنسه في نصوص رواية الصحراء، كما أبان عن ذلك الوصف، ترتبطان بهذين المكونين، لذلك كانت إضاءة الذين حصروا السردية في طرائق اشتغال الزمن والصيغة والتبئير غير كاملة لسردية رواية الصحراء، من أصحاب السرديات الحصرية، فلم يبصروا ملامحها كاملة. فكانت السرديات التوسيعية الخيار المنهجي الملائم للكشف عن المناطق المعتمة من سردية رواية الصحراء.

السرديات الوصفية ومراجعة حدود السردية: سرديات التمدد

1.2.2.2. ـ لقد أدى الاشتغال بالسرديات الوصفية أداة لوصف سردية نصوص رواية الصحراء في كتاب "شعرية رواية الصحراء" إلى الوقوف على مكونتين سرديتين، تأتي منهما سردية للنصوص ممتعة ومؤنسة، ليس مصدرها مكونات: الزمن والصيغة والتبئير، هما: المتخيل السردي ومستويات اللغة. فقد أبان الوصف والتحليل في هذه المدونة عن مساحة من السردية، مصدرها طرائق تكثيف المتخيل ومستويات اللغة وأساليب تكثيفها للمتخيل. لذلك كان الانحياز إلى توسيع السرديات للوقوف على بقية ملامح السردية، التي لم يتمكن وصف طرائق اشتغال مكونات الزمن والصيغة والتبئير، من تغطيتها، لكونها آتية من المتخيل ومستويات اللغة. وهو انحياز إلى السرديات التوسيعية، يخالف خيار التوسيع المشتغل بعناصر القصة والمنفتح على الدلالة، ويتبنى خيار التوسيع القائم على التمدد، المتمسك بالتعبير مصدرا للسردية، وبالخطاب موضوعا للسرديات، والملتزم بسردية الخطاب مشغلا للسرديات التوسيعية. لذلك كان التوسيع في المشغل الخيار المنهجي الذي سعت إليه "سرديات التمدد": في وصفها لما لم تصل إليه طرائق اشتغال مكونات الخطاب من سردية الخطاب (توسيع مجال السردية التعبيرية)، وفي وقوفها على مكونتين تعبيريتين للخطاب (توسيع مكونات الخطاب). وهو خيار في توسيع سرديات الخطاب وصف السردية، انشغل به سرديو الخطاب، الباحثون عن مكامن السردية التعبيرية ومظانها، ومنها سردية رواية الصحراء، التي عنها يصدر روائيو الصحراء في تحقيقهم لسردية نصوصهم ومنها المدونة التي اشتغلنا عليها.

سرديات التمدد ورواية الصحراء: توسيع السردية واتساع الخطاب.

1.2.2.2.2 ـ لقد بين الوصف لسردية الخطاب في هذه المدونة، أن مصادر الحسن والإمتاع فيها، كامنة في طرائق تكثيف المتخيل، فهو المكونة السردية التي عنها تصدر سردية النصوص. وأن مآت أخرى لجماليات النص، آتية من مستويات اللغة وطرائق الاشتغال بها، وأساليب تعبيرها، ونثريات قولها، فهي مكون سردي آخر تأتي منه سردية الخطاب، تجعله ممتعا ومؤنسا، وتمنحه خطابا، يصبح معه جميلا. هذان المكونان السرديان، "المتخيل" و"مستويات اللغة"، بهما تم توسيع مكونات الخطاب من ثلاث إلى خمس (الزمن، الصيغة، التبئير، المتخيل، مستويات اللغة). وهذا ما عبر عنه أستاذي د. سعيد يقطين ب "التدقيق" في تقديمه للكتاب بقوله " بهذه التدقيقات يبرز محمد الأمين انحيازه إلى السرديات التوسيعية، بما هي محاولة لتطوير السرديات بتجاوز الحدود التي حصرت فيها نفسها في بداية تكونها، وهي تسعى لتشكيل اختصاص يعني ب" الخطاب" السردي، بالتركيز على مكوناته الداخلية بالوقوف على الزمن والصيغة والتبئير. إنه اختيار واع

يكشف عن رؤية متقدمة للتحليل السردي."[1] وخلال الاشتغال بقضايا السرديات ما يقارب العقدين من الممارسة والبحث، تم تطوير هذا الطرح، اعتمادا على مرتكزين أساسيين: نظري أقيم بناؤه انطلاقا من الانشغال بأطروحة "سرديات الخطاب" ولاشتغال بها، بمسائل أطروحة ميشل ماتو كولاس في توسيعه ل" حدود السرديات"، وآخر تطبيقي أقيم أسه على قاعدة تمدد مكونات الخطاب السردي لتوسيع، ما ضيقه السرديون الأول (جرار جنت، تودوروف...)، عند تحديدهم للسردية وحصرهم لمكونات خطابها.

السرديات التمدد ورواية الصحراء: توسيع الضيق واكتشاف الواسع.

2.2.2.2ـــ يتأسس الطرح الذي يقترح هنا لتوسيع السرديات، على قاعدة تمدد عناصر الخطاب واتساع سردية الخطاب، لتشمل مساحات من جماليات القول السردي ومستويات من الإمتاع والمؤانسة فيه، لم يصل إليها السرديون الأول بحصرهم لمكونات الخطاب، لتوقفهم في البحث عن مآتي الحسن وجماليات السرد في القصة، عند حدود طرائق اشتغال مكونات الخطاب. فقد قادت مستويات الوصف والتحليل في السرديات التطبيقية لنصوص رواية الصحراء، إلى اكتشاف مكامن من السردية في القصة ليس مصدرها طرائق اشتغال الزمن والصيغة والتبئير، وإنما طرائق تكثيف المتخيل في هذه النصوص ومستويات اللغة وأساليب قولها، كما أدي وصف السرديات لخطاب "رواية الجنوب" ورواية الصحراء إحدى تمظهراتها الإبداعية –إلى مناطق من سردية النص وطبقات قولها، لم تصل إليها إضاءة السرديات الحصرية في وصفها لمآتي الحسن، ومصادر الإمتاع والأنس فيها.

1.2.2.2.2ـــــ لقد كانت العودة الثانية للقصة، وليس إلى الخطاب موضوعا للبحث والتحليل مع السرديين التوسيعيين ـــ والتي دعا إليها كولاس في بحثه عن سردية للنص، يريد أن يجمع شتاتها بالدعوة إلى الجمع بين الأختين (مكونتي القصة والخطاب) ـ العلامة على الطريق، التي دلت هذا الجهد ـــ وهو يبحث عن معالم لسردية رواية صحراء، مصدرها ليس زمن الخطاب وإنما المتخيل السردي ـــ على أن يعود مع العائدين إلى القصة، لكن لا لوصف سردية مصدرُها عناصر القصة، وإنما بحثا عن ما بقي من عناصر للخطاب كامنة في القصة، ما زالت لم توصف، تركها الأسلاف من السرديين الأول (جينت، تودوروف...) تتعايش مع عناصر القصة، كشفت السرديات الوصفية لنصوص رواية الصحراء عن مكونين منها هما: المتخيل السردي ومستويات اللغة، بهما أمكن الوقوف على معالم لسردية خطاب رواية الصحراء، منوعة لسردية رواية الجنوب ومبرزة لخصوصية

[1] ـ سعيد يقطين، تقديم كتاب، شعرية رواية الصحراء: مرجع مذكور سابقا، ص/9

سردية مغايرة لسردية رواية الشمال. وبهما تمت إضاءة مناطق من هذه السردية ظلت معتمة، لم تكن أدوات السرديات الحصرية لتصل إليها. وهو ما ساهم في توسيع للسرديات يحسن من أدواتها المنهجية، في قدرتها على وصف السردية التعبيرية للنص السردي، ويعزز من مداركها النظرية، في قدرتها على أن تمتلك رؤية مبصرة لمعالم السردية وحدودها، تتكئ على التعبير مدخلا للوصف والتحليل. وهو خيار في التوسيع يمدد السردية ويوسع ما ضيقه الحصريون بحصرهم لمكونات الخطاب في ثلاث مكونات (الزمن، الصيغة، التبئير) وحصرهم لحدود ملامح السردية التعبيرية في طرائق اشتغال مكونات الخطاب. فكانت " سرديات التمدد" الخيار المنهجي الموسع للسرديات على قاعدة التمسك بالتعبير مصدرا للسردية، وليس على أرضية الكشف عن مآت للسردية مزدوجة تعبيرية ودلالية، تشتغل على القصة والخطاب معا.

سرديات التمدد: توسيع سرديات الخطاب

3.2.2.2ـــ يتأسس طرح " سرديات التمدد" على خيار منهجي ينطلق من "سرديات الخطاب" عند السرديين الأول موضوعا للبحث والمساءلة، ومن السرديات التوسيعية خيار لتطوير السرديات التعبيرية والتحسين من أدواتها وكفاءتها المنهجية، عند السرديين الجدد، للكشف عن مكامن من السردية التعبيرية في القصة، لم تطلها بعد يد الوصف والتحليل، فقد أبان الوصف لسردية رواية الصحراء، أنه ما زالت في "جبة القصة" مكونين تعبيريين لسردية بكر، لم تكشف عنها عُدة الحصريين المكتفية من الأبعاد التعبيرية للقصة بالزمن والصيغة والتبئير، يتعين وصفهما والوقف عند ما يضيفان من معاضة لسردية الخطاب كشفت عنها السرديات الوصفية في رواية الصحراء:

1.3.2.2.2. – المتخيل السردي، وهو في هذا الطرح القصة بعد أن تكتب أو تحكي، وليس المادة السردية، فالقصة قبل أن تكتب مادة سردية متاحة للجميع، وهي في تحديدها هذا أقرب إلى المعنى. ولذلك كانت القصة بما هي مادة سردية موضوعا لسميولوجيا السرد، لان البحث فيها مشغل دلالي، أما القصة بما هي متخيل فموضوع للسرديات، لان البحث فيها مشغل تعبيري، يتناول طرائق تكثيف القصة (المادة السردية) وصيغ تحقق متخيلاتها، وأساليب تكثيفها، وهذا المكون التعبيري من القصة، هو المكون الرابع من مكونات الخطاب السردي، المسمى بالمتخيل السردي.

2.3.2.2.2. – مستويات اللغة وهو خامس مكونات الخطاب السردي الموسع لمساحة سردية الخطاب، المحقق لمراتب من السردية مرتبطة بالأساليب وطرائق التعبير، ومدارج من السردية آتية من الاشتغال باللغة وأمثلة النص السردي، ومكامن من الإمتاع والمؤانسة، ناشئة من اللغة التي بها كتب النص السردي، وهو مكون لا يعتني بمآتيه من الحسن إلا الأدباء من القصاص والروائيين

الكبار، الذين يعتبرون باللغة مصدرا للإمتاع، ويشتغلون بمستوياتها أداة من أدوات الكتابة، المحققة لسردية من القول منشؤها أساليب تكثيف القصة، ولنا في تاريخ كتابة الرواية العربية أمثلة لروائيين، عرفوا بمقروئية عالية، نتيجة لما عرفوا به من أساليب ممتعة ومؤنسة، إضافة إلى سردية نصوصهم، جاذبية للقراءة وسعت من قاعدة قراءة أعمالهم، من أمثال طه حسين، محمود المسعدي، وطيب صالح وغيرهم كثر.

3.3.2.2.2. ـــ بهذين المكونين تتسع مكامن السردية وتوسع مكونات الخطاب لتشمل مكونين تعبيرين جديدين، يعززان عُدة السرديات، في الكشف عن جوانب من السردية كانت مظلمة. وهو خيار منهجي من السرديات التوسيعية يوسع مجال السردية ومصادرها، لتشمل مآت من الحسن ومصادر من الإمتاع في الخطاب السردي، لم تكن لتصل إليها طرائق اشتغال مكونات الخطاب الثلاثة (الزمن، الصيغة، التبئير) عند الحصريين، وتمدد مكونات الخطاب السردي لتنتقل من ثلاث مكونات (الزمن، الصيغة، التبئير) إلى خمس مكونات (الزمن، الصيغة، التبئير، المتخيل ومستويات اللغة). فسردية الخطاب في هذا الخيار، لا تتوقف عند طرائق اشتغال الزمن والصيغة والتبئير، فحسب بل تطال مستويات أخرى من المشغل التعبيري، لم تنل حظها من الدرس والنقاش، هي طرائق تكثيف المتخيل ومستويات اللغة ودرجات إمتاع نثريتها. وبذلك تكون سرديات التمدد قد وسعت ما ضيقه المؤسسون الأول (مكونات الخطاب) على قاعدة سردية الخطاب لا القصة، ووسعت من دائرة السردية باكتشافها لمساحات من السردية مصدرها التعبير، وأداتها طرائق تكثيف المتخيل ومستويات اللغة.

سردية الجنوب والوعي بالنظرية النقدية: تركيب

1.3. ـــ لقد تبين مما سبق أن رواية الجنوب تثير قضايا أدبية متنوعة وتطرح أسئلة نقدية متعددة، ما تزال موضوعا للبحث والنقاش في البيئيات العلمية العربية وحواضنها الثقافية، لا يمثل سؤال البحث عن هوية الشكل وسردية الخطاب، كما عرضنا لها هنا، في راهن الفكر الأدبي العربي، إلا أحد الأسئلة النقدية العديدة المطروحة اليوم في مؤتمرنا هذا، للنقاش والحوار. وهي الأسئلة المرتبطة في مشغلها البحثي بقضايا الوعي بأشكال الكتابة السردية ومنها الرواية، في علاقتها بالهوية وخصوصية الكتابة. وبأسئلة المنهج والأدوات الملائمة للكشف عن سردية لرواية الجنوب متنوعة في مكونات خطابها الروائي لرواية الشمال. فقد أنتجت مقامات قول أهل الجنوب وأحوالهم أشكالا سردية (رواية الصحراء)، لا تطابق مقتضيات حال أهل الشمال و منابت قولهم، التي تأسست عليها نظرية الرواية عند السوسيولوجيين، ولا تضيء أدوات السرديات الحصرية كل ملامح سردية

الجنوب، لبقاء بعض مكونات الخطاب المحققة لسردية الخطاب (المتخيل، مستويات اللغة)، خارج دائرة الوصف والتحليل، فجاء رواياتهم (رواية الصحراء) غير قابلة للتصنيف في خانات أشكال الكتابة القائمة (رواية المدينة)، مباينة في سرديتها، التي عليها تأسس تنظيرهم للرواية(نظرية سوسيولوجيا الأدب).

2.3. – لقد أثبتت الكتابات السردية لسكان أهل الجنوب، ومنهم سكان المنطقة العربية، أنها مكامن لنوعيات من الكتابة السردية ذات هويات إبداعية مغايرة للكتابات السردية لأهل الشمال، لارتباطها هذه الكتابات بالنثريات الأدبية للتكوينات الاجتماعية لمجتمعات الجنوب، وأنساقها اللسانية والأدبية والثقافية الخاصة، وصدورها عن رؤية إبداعية في تسريد حياة أهل البادية، وتكثيف متخيلاتهم لعالم الصحراء، وتعبيرهم عن منطوقاتهم وحكيهم لمسروداتهم في مجالس سمرهم ومحافل ثقافتهم.

3.3. ـــ كما بينت الوصف والتحليل أن هذه الكتابات للسردية، بأشكال كتابتها المتعددة والمتنوعة، تتطلب نظرة نقدية تتوكأ على فهم للنظرية الأدبية وحذق لمناهجها ومتلاك لأدواتها، تحتاجه اليوم في بيئاتنا العلمية وحواضننا الثقافية، للتحرر فكرنا الأدبي من بقايا النقد التقليدي، ورواسب الطرح النقدي المدرسي السائد، الذي دحضته تطورات النظرية النقدية وتجاوزته إبدالاتها المنهجية. ولئن ظل هذا طرح، غائبا عن بعض دوائر التداول العلمي القائم اليوم في بعض البيئات العلمية العربية، نتيجة تمسكها بالطرح السوسيولوجي، وولائها لتفكيره المنهجي وانصياعها لسلطة ذهنيته النقدية. فان حضوره المتزايد في البيئات العلمية العربية –باعتباره خطابا مناهضا ومراجعا لبعض الأطروحات المدرسية، التي عاش عليها فكرنا الأدبي ردحا من الزمن، وما زالت تعيق تطور النظرية النقدية وتطبيقاتها المنهجية في جامعاتها ومراكز بحثنا العلمي –أمر يدعو للتفاؤل بان هذه البيئات العلمية ستواكب التطورات النظرية والمنهجية التي يشهدها علم الأدب.